الرسالة الشافية

فى الإعجاز

تأليف إمام البلاغيين

عبد القاهر الجرجانى

المتوفى سنة ٤٧١ هـ

شرح وتفسير مع دراسة فى وجوه الإعجاز

الدكتور عبد القادر حسين

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ ـ فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٧ عبد القاهر الجرجانى، أبو بكر بن عبد الرحمن، . . . ، ٤٧١ هـ.
ق ا ر س الرسالة الشافية فى الإعجاز/ تأليف عبد القاهر الجرجانى؛
شرح وتفسير مع دراسة فى وجوه الإعجاز/ عبد القادر حسين. ـ
القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.
١٠٩ ص؛ ٢٤سم.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية وحواشى.
يشتمل على كشافات.
تدمك: ٨ ـ ١١٤٤ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
١ ـ القرآن الكريم، إعجاز. أ ـ عبد القادر حسين، شارح. ب ـ العنوان.

حورس للطباعة والنشر (مهندس / هشام الشربينى وشركاه)
١ ش الدقى ـ خلف رقم ١٨٤ ش بورسعيد ـ السيدة زينب ت: ٣٩٥٧٦١٤



الإمام عبد القاهر الجرجانىّ (ت ٤٧١هـ)

هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانىّ، أخذ النحو عن الشيخ أبى الحسين محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ) ابن أخت أبى على الفارسىّ (ت ٣٧٧هـ) واقتصر على الأخذ منه؛ لأنه لم يلق شيخاً مشهوراً فى علم العربية غيره، حكى عنه كثيراً، ونهل من ينابيع علمه فضلاً عظيماً.

كان عبد القاهر عالماً بالنحو والبلاغة، قطع فيهما أشواطاً بعيدة، ومؤلفاته تشهد بذلك، وإماماً من كبار أئمة العربية والبيان، شافعى المذهب، متكلماً على طريقة الأشاعرة.

تَمثَّل تراث أسلافه وخاصة المبرزين منهم كسيبويه (ت ١٨٠ هـ) والآمدى (ت ٣٧٠هـ) وعلى بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٩٢ هـ)، كما أخذ عن ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) ونقل من خصائصه صفحات كاملة فى كتابه دلائل الإعجاز.

أصبح عبد القاهر قبلة طلاب العلم، يرتحلون إليه حيثما كان، يرشفون من ينابيع علمه، وينهلون من مصادر حكمته، يأخذون عنه مشافهة، أو ينقلون عنه كتابة.

من أبرز من تأثر به: الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) فى كتابه الكشاف فى تفسير القرآن، وأفاد منه كثيراً فى تطبيقاته البلاغية.

وسار الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) على نفس الدرب، فلخص كتابَىْ عبد القاهر: الدلائل والأسرار، وعرض خلاصة ما نقل عن فكر عبد القاهر فى كتابه نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، وصاغ فكره فى قوالب محكمة، وقواعد ثابتة، لا تخرج عمّا كتبه عبد القاهر بحال من الأحوال.

وخيرُ من أفاد من عبد القاهر: السكاكى (ت ٦٢٦ هـ) الذى صاغ كتابه المفتاح - الجزء الثالث - الذى أفرده للبلاغة، ناقلاً عن عبد القاهر محتذياً حذوه، وإن كان منهجه يختلف عن عبد القاهر اختلافاً جوهرياً، فعبد القاهر ينحو إلى التحليل والموازنة والدراسة، بينما السكاكى يلجأ إلى التقرير والتلخيص ووضع القاعدة، غير أنه فى كل الأحوال لم يخرج عما ارتسمه عبد القاهر فى دلائله وأسراره.

وتبعه فى ذلك علماء كثيرون حتى تحولت البلاغة على أيديهم إلى شروح وتلخيصات، بعد أن كانت مبهرة على يد عبد القاهر.

سار هؤلاء الأعلام الثلاثة: الزمخشرى، والرازى، والسكاكى فى ركاب عبد القاهر، مقتفين أثره يربطهم جميعاً رباط واحد، هو رباط البيئة الجغرافية، حيث إنهم ينتسبون

إلى إقليم جغرافى واحد.

وللإمام عبد القاهر كتب عديدة فى فروع مختلفة: فى النحو والتصريف، والبلاغة والتفسير، والأدب والعروض.

*** فله فى النحو والتصريف:**

١ - **المغنى**: وهو شرح لكتاب الإيضاح لأبى على الفارسىّ (ت ٣٧٧هـ) فى ثلاثين مجلداً.

٢ - **المقتصد**: اختصر فيه كتاب الإيضاح، وجعله فى ثلاثة مجلدات.

٣ - **الإيجاز**: وهو مختصر شاف لكتاب الإيضاح.

٤ - **الجمل**: تحدث فيه عن العامل فى الاسم والفعل والحرف.

٥ - **التلخيص**: وهو شرح لكتاب الجمل.

٦ - **العوامل المائة فى النحو**: وكان لهذا الكتاب صدى عظيم حتى نظم شعراً.

٧ - **العمدة فى التصريف.**

*** وفى البلاغة:**

٨ - **دلائل الإعجاز**: تحدث فيه عن نظرية النظم، والأعمدة التى تقوم عليها من ائتلاف فى الكلمات وترتيب لمعانيها.

٩ - **أسرار البلاغة**: ويُعَد من أعظم ما كتب فى الأدب العربى فى البلاغة والشعر.

*** وفى علوم القرآن:**

١٠ - **الرسالة الشافية فى الإعجاز**: وهى التى نقوم بتحقيقها وتفسيرها وهى التى بين يدى القارئ.

١١ - **شرح الفاتحة**: ذكر فى طبقات الشافعية، وطبقات ابن قاضى شهبة.

١٢ - **شرح على كتاب إعجاز القرآن للواسطى (ت ٣٠٦ هـ).**

١٣ - **درج الدرر**: ذكره بروكلمان.

*** وفى الأدب:**

١٤ - **المختار** من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام، منشور فى الطرائف الأدبية للميمنى.

*** وفى العَروض:** كتابان لم يعرف موضعهما بعد، وهما:

١٥ - **التذكرة**: ذكر فى طبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ٩٥.

١٦ - **المفتاح**: ذكر فى كشف الظنون ٢/ ٦٢٣.

وبعد.. فهذه ترجمة موجزة تكشف عن حياة عبد القاهر الحافلة بالعلم والإبداع.. وكتبه الزاخرة بالرأى المبتكر والنظرية الفذة...

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إعجاز القرآن

بقلم دكتور: عبد القادر حسين

للرسول ﷺ كثير من المعجزات التى تدل على صدقه ، وأنه مرسل من قبل الله سبحانه وتعالى .

وأفضل هذه المعجزات وأبعدها أثراً وأشدها تأييداً ، هى معجزة القرآن الذى نزل بأفصح اللغات وأبلغ البيان ، فقد سحر القرآن العرب منذ أن استمعوا إليه فى اللحظة الأولى ، سواء من شرح الله صدره للإسلام ، وأنار بصيرته ، أو من طُبع على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

فالوليد بن المغيرة ، وهو من أفصح العرب وأقواهم بياناً ، وأعظمهم بلاغة ، يقول عن القرآن الكريم : ﴿ **إن هذا إلا سحرٌ يُؤْثر** ﴾ (المدثر : ٢٤) .

والقساوسة الرهبان ﴿**وإذا سَمِعُوا ما أُنزل إلى الرسولِ تَرى أعينَهم تَفيضُ من الدمْعِ**﴾ (المائدة : ٨٣) . فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرك مشاعره ، ويهتز قلبه طرباً ، أو يقشعر بدنه خوفاً ، أو ينعصر فؤاده رجاء ، لما فيه من جمال فى الأسلوب ، وقوة فى العبارة ، وموسيقية فى الإيقاع ، والله يصف كتابه بأنه ﴿ **أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مَثانِيَ تقشَعِرّ منه جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ الله** ﴾ (الزمر : ٢٣)

فروعة القرآن تدرَك ولا توصف شأن النغم الحلو ، والوزن المستقيم ، فيتسلل إلى أغوار النفس ، ويستقر فى أعماقها . ولكن العرب كما يصفهم القرآن ﴿ **قوم خَصِمون** ﴾ (الزخرف: ٥٨)، وأعداء ألداء: ﴿**وتُنْذرَ به قوماً لُدّاً**﴾ (مريم: ٩٧)، فأخذوا يتناولون القرآن بالتشكيك تارة ، فزعم بعضهم أنه فى متناول أيديهم ، وأنهم قادرون عليه: ﴿**لو نشاء لقلنا مثل هذا**﴾ (الأنفال: ٣١). وبالتهجم تارة أخرى، فأرجفت طائفة بأنه كذب ، وقد صنعه محمد من تلقاء نفسه ، وافتراه على الله : ﴿ **وقالوا مَا هَذَا إلا إفْكٌ مُفْتَرَى** ﴾ (سبأ : ٤٣) ، وحرضوا على النفور منه ، وترك الإصغاء له ،

ودعَوا إلى الطعن فيه ، فكانوا يقولون : ﴿ **لا تسمعُوا لهذا القرآنِ والغَوْا فيه لعلّكم تَغْلبون** ﴾ (فصلت : ٢٦) .

ولكن الله رد كيد الكافرين إلى نحورهم ، وأدخل اليأس على قلوبهم حين تحدى الرسول بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ولكنهم عجزوا وأعرضوا عن معارضته ، فكان ذلك داعياً إلى الاعتراف بإعجاز القرآن ، وقصورهم أمام بلاغته .

والقرآن ليس معجزاً للعرب وحدهم ، وإنما هو معجز للعربى وغير العربى ؛ لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية ليست مرتبطة بلغة معينة ، ولا بوطن خاص ، وإنما هى دعوة تحتوى العالم بأسره ، ومن أجل ذلك كان القرآن معجزاً لجميع الأمم والأجناس .

وحجة القرآن على العرب الفصحاء كحجته على غير العرب من الأعاجم ، كما أن حجة موسى عليه السلام فى قلب العصا حية كانت لأمهر السحرة وغير السحرة. وحجة عيسى عليه السلام فى إحياء الموتى لم تكن لأعظم الأطباء وحدهم ، وإنما كانت للطبيب الماهر والخامل ، وغير الطبيب على السواء ، وإذا عجز أمهر السحرة وأعظم الأطباء عن الإتيان بمثل ما أتى به موسى وعيسى كان ذلك أدعى إلى عجز غيرهم .

كذلك الشأن فى معجزة القرآن، أتى به محمد ﷺ لأفصح الناس وأقدرهم على نظم الكلام العربى، ورغم حرصهم على تكذيب الرسول، وإفساد دعوته، لم يفلحوا فى مجاراته، ولم يستطيعوا تكذيبه.

وإذا كان العرب الفصحاء عاجزين عن مجاراة أسلوب القرآن فى فصاحته وبلاغته ، فغيرهم من الأعاجم أعجز .

وقد يقول قائل : إن الأعجمى الذى لا يفهم العربية لا يدرك ما فى أسلوب القرآن من نظم معجز، وبلاغة عجيبة، ولا يدرى من أين يكون إعجازه، وكيف تكون بلاغته، وعندئذ تسقط الحجة فى الإعجاز . نقول : إن الإعجاز لغير العربى يبدو فى أشياء أخر فوق البلاغة والفصاحة التى لا يدرك مراميها ، فكل يوم تطلع علينا أشياء جديدة ، ومكتشفات حديثة لا نجد تناقضاً بينها وبين ما فى القرآن من نهج اتبعه فى التعبير عنها فى تناسق تام لا نفرة فيه ، بحيث يدرك الأعجمى من هذا التناسق فى التعبير ، والدقة فى الأداء القرآنى الذى يتفق وما يكتشفه العلم حديثًا، سرًا من أسرار الإعجاز فى الأسلوب البيانى للقرآن .

* * *

وجوه إعجاز القرآن

محمد النبى الأمى الصادق تحدى العرب الذين بلغوا النهاية فى حسن القول وبراعة الكلام ، تحداهم أن يعارضوا القرآن ، فهو كلام الله ، نزل به جبريل الأمين ، وما كان أمره كذلك ينبغى ألا يكون فى طوع البشر مجاراته أو فى مقدورهم محاكاته ، وقد سلك الرسول معهم سبل الحجاج ، فبدأ بالأصعب ثم تدرج إلى الأسهل ، وكلما عرض عليهم صوراً من التحدى أخفقوا واعترفوا بعجزهم ، تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن : **﴿ قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثْلِ هَذَا القرآنِ لا يَأْتُونَ بمثْله ، ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً ﴾** (الإسراء : ٨٨) ، فصعب عليهم الأمر واستعصى عليهم القول، فأراد الله أن يخفف عنهم ، فتحداهم ثانياً أن يأتوا بعشر سور من مثله : **﴿ أم يَقولون افْتراه قل فأْتوا بعشْرِ سوَرٍ مثْله مُفْتَريَات ﴾** (هود : ١٣) ، فلم يأتوا بهذه السور التى تعد على الأصابع إذ لا قِبَلَ لَهَم بها ، ولا طاقة لديهم بمثلها ، فتدرج التحدى معهم إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الأمر ، تحداهم بسورة واحدة فقط ، ليس شرطاً أن تكون فى معنى السورة التى يعارضونها ؛ بل بأى معنى من المعانى ، ولكن فى جمال نظم القرآن وإبداعه : **﴿ وإن كنتم فى ريْب مما نزّلنا على عبْدنا فأْتُوا بسورة من مثْله وادْعُوا شُهداءكم من دون الله إنْ كنتمْ صادقين ، فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعَلوا فاتقُوا النارَ التىَ وَقودُها الناسُ والحَجارةُ ﴾** (البقرة : ٢٣ ، ٢٤) . فالله وصف رسوله فى هذه الآية بالعبودية وأضاف العبودية إليه ، وهذا تشريف للنبى وتقريب له ، حتى يكون الناس جميعاً عبيداً لله سبحانه لا يستكبرون عن عبادته ، وإن كانوا يرتابون فى القرآن ، وأنه منزل من قبل الله ، فليأتوا بسورة من مثله ، من طوال السور أو من قصارها ، وفى ذلك تقريع للمعاندين وسخرية من المكابرين ، وتنديد بمن يرتاب فى معجزة الرسول الأمى ، ثم اشتد القرآن فى القسوة عليهم حتى تندّر بهم وطالبهم أن يدعوا من دون الله : من الناس أو الأوثان من يشهد لهم بصدقهم وقدرتهم ، وحسب محمد أن يكون الله قد شهد له بالصدق فى دعواه .

ثم زاد أمر التحدى والإصرار عليه ، ولكن طاقتهم أضعف من احتماله ، ولذلك يقرر القرآن فى جزم شديد مخاطباً المعاندين : ﴿ فإنْ لمْ تَفْعَلُوا ولن تَفعلوا ﴾ (البقرة : ٢٤) **بأنهم ما استطاعوا ذلك فى الماضى والحاضر ، ولن يستطيعوه أيضاً فى المستقبل ،**

فالخطاب للبشر جميعاً ، وفى عصر الرسول وبعد عصر الرسول ، ولكل الأجيال المقبلة، فهم عاجزون وإن كانوا لا يستجيبون ؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم،وعلى أبصارهم غشاوة ، فألبسوا الحق بالباطل ، وتمادوا فى جهلهم ، وأصروا على عنادهم واستكبروا استكباراً .

أجل تحداهم محمد أن يأتوا بمثل القرآن ، أو أقصر سورة منه ، ليس فى معناها بل بأى معنى شاءوا ، ولكن بجمال نظمه وحسن أسلوبه .

يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) : « ولا يجوز أن يكون مثل العرب فى كثرة عددهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم ، وقد فاض بيانهم حتى قالوا فى الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخَنافس ، وكل ما دبّ ولاح لعين وخطر على قلب ، ولهم - بعدُ - أصناف النظم ، وضروب التأليف .. ثم لا يعارضه مُعارض ، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر .

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، وهم أشد خلق الله أنَفة ، وأفرطهم حميّة [1] ؟ !

فالقرآن معجز بنظمه ، وصياغة أسلوبه ، ودقة ألفاظه ، والتئام بعضها ببعض ، فالجمل متشابكة يرتبط بعضها مع بعض ، ويدلّ أولها على آخرها » .

ويستمر الجاحظ فى إبراز روعة القرآن وتميزه عن غيره من الأساليب العربية ، « فلو أن رجلاً من العرب قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له فى نظامها ومخرجها ، وفى لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدث بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها . . . ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه ، لما قدر على ذلك » [1] .

❊ ❊ ❊

(١) رسائل الجاحظ - السندوبى .

الصَّــــرفة

وإذا كان الرسول عليه السلام قد طالبهم فى دعوته بترك أديانهم ، وهجر أوثانهم ، والتضحية بأموالهم ، وبذل أنفسهم فى سبيل الله ، وأن يصبروا ويصابروا ، وأن يتخلوا عن كل ما ألفوه مما يتنافى مع الرسالة الجديدة ، فقد شق الأمر على نفوسهم ، وناءت به كواهلهم ، وهم قد درجوا على الأنفة والحمية الجاهلية ورفض الخضوع، والإذعان للطاعة، كل هذه الصفات جعلت العرب فى موقف الدفاع عن التقاليد والتمرد على الرسالة المحمدية ، فتوافرت الدواعى لديهم لإبطال حجة الرسول ، وقهره أمام الناس أجمعين ، إذن فدواعى المعارضة للمعجزة التى أتى بها محمد للدلالة على صدقه متوافرة ، فإذا لم يقدروا على المعارضة ولم يجدوا إليها سبيلاً ؛ كان ذلك دليلاً على عجزهم ، وهل ثمة علامة للعجز أكبر من ذلك .

وليس أعجب من قول النظام (1) أحد علماء المعتزلة ، من أن القرآن نفسه غير معجز، فهو فى رأيه كتاب مثل سائر الكتب ، لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علمهم : أى أن الإعجاز فى المنع وليس فى القرآن ، إذ إن العرب فيهم ذلاقة لسان وانطلاق عبارة ، وهم قادرون على حَوْك الكلام وصياغته فى أسلوب جميل خلاب ، أى أنهم قادرون على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بلاغة وفصاحة ، ولكن الله صرف هممهم عن مجاراة القرآن ، والرجل إذا كان قادراً على القيام بشىء ، وعنده الحافز والرغبة فى القيام به ، فسيقوم به لا محالة ، فإذا توافرت له الأسباب من قدرة وحافز ورغبة ، ثم لا يستطيع القيام به ، فذلك شىء خارج عن العادة ، إذ ليس ثمة ما يعوقه ويعجزه عن تحقيق غرضه ، « كأن يأتى مثلاً نبى ومعجزته فى تحريك يده ، ويطلب من القوم تحريك أيديهم فيعجزون رغم صحة أبدانهم ونشاط جوارحهم فلما لم يقدروا كان ذلك دليلاً على صدقه » (2) .

والأمر كذلك بالنسبة للقرآن ، فهو معجزة الرسول ، وطلب من القوم أن يأتوا بمثله فصاحة وبلاغة ، فيظهر عجزهم رغم فصاحتهم وبلاغتهم ، وقد وجدوا فى أنفسهم ما

---

(1) الألوسى : 1/27 ، الملل والنحل : 1/67 ، أمالى المرتضى : 1/187 .

والنظام : هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ ، وأحد أعمدة المعتزلة ، توفى سنة 224 هـ .

(2) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص 20 .

يشبه الآفة حين عرض عليهم ما يحيل السهل صعباً ، وإذا كان العائق خارجاً عن العادات صار كسائر المعجزات .

وهذا دليل ظاهر على أن أمر المعارضة ليس بأيديهم ، وإنما هو خارج عن طوقهم ، إذ لا يخفى على ذوى البلاغة أن صارفاً إلَـهيًّا قد صرفهم عنها ، وهذا يفيد أن القرآن ليس من صنع البشر ، وإنما هو معجزة الله لنبيه محمد عليه السلام ، وأى إعجاز أعظم من أن يعجز البلغاء عن معارضة قول فى الظاهر ، صرفهم الله عنه فى الباطن .

والقول بالصرفة مردود « لأن العرب ما تكلموا بمثل القرآن قط ، ولم يأت منهم نظيره قبل مبعث النبى ، ولو نظموا مثله قبل مجىء الرسول لقالوا هذا مثل نظمنا ، وإنما صرفنا الله عنه ، ولكنهم لم يقولوا ذلك ، فدل على أنهم لم يقدروا عليه لا فى الحاضر ولا فى المستقبل » (1) .

وإذا كان الله هو الذى سلبهم القدرة على الإتيان بمثله ، فيكون المنع من الله هو المعجز، وليس فى القرآن صفة الإعجاز ، ولا يتميز بفضيلة عن غيره ، مع أن الإجماع متفق على إضافة الإعجاز للقرآن .

والقول بالصرفة فاسد أيضاً بدليل قوله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعتْ الإنسُ والجنُّ** ﴾ الآية ». (الإسراء : ٨٨) ، إذ لو أن الله صرفهم وسلب عنهم القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ؛ لأنه يكون بمثابة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل به .

فالقول بالصرفة نظرية لا نشك فى خطئها ، وفيها مساس بالذات العلية لا يليق بمسلم أن يعتقده . والحق أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من الخلق ، فالعربى الفصيح كان يصنع الخطبة أو يقرض القصيدة ويستفرغ فيها كل جهده ، ويعود عليها بالتنقيح المرة تلو المرة ، وقد يستغرق ذلك حولاً كاملاً ، فإذا أعطيت لنظيره عالجها بالتبديل والتنقيح ، ثم لا يزال الأمر كذلك موضع تغيير وتحوير .

أما كتاب الله ، فلو نزعت منه لفظة ، أو أردت أن تغير فيه كلمة ما استطعت أن تأتى بلفظة أو كلمة أخرى أفضل منها ، وإذا كان العربى القديم يتميز بحسه اللغوى وقريحته النفاذة،وظهرت له براهين البراعة فى نظم القرآن وعجز عنها ، فإننا الآن على العجز أظهر، وبالتسليم أولى ؛ لأننا قاصرون عن مرتبة العرب الأقدمين فى سلامة ذوقهم اللغوى ، وجودة قريحتهم فى تأليف الكلام ، ولو كان الإعجاز بالصرفة لما استعظموا فصاحة القرآن وتعجبوا لبلاغته وحسن فصاحته ، والرواية المشهورة عن إعجاب الوليد بن المغيرة بالقرآن وحلاوته عند الإصغاء إليه أعظم شاهد على ذلك .

---

(1) نكت الانتصار ص ٢٨٩ .

الإخبار عن المستقبل

وزعم قوم أن إعجاز القرآن مصدره فيما تضمن من الإخبار عن الغيب ، وعن أشياء سوف تحدث فى المستقبل ، وقد تأكد صدق هذه الأخبار بوقوعها ، وذلك ليس فى قدرة البشر ولا طاقة لهم به ، فمن وعد الله لنبيه [(١)] أنه سيظهر دين الإسلام على الأديان كلها حين قال له : ﴿ **هو الذى أرسلَ رسولَه بالهدَى ودين الحقِّ ليُظهرَه على الدينِ كلِّه ولوْ كَرِهَ المشركون** ﴾ (التوبة : ٣٣) ، وقد تحقق وعد الله لنبيه ، فظهر الإسلام على غيره من الأديان الأخرى وانتشر فى شتى البقاع ، وأصبحت له الغلبة حيثما كان ، ولذلك كان أبو بكر رضى الله عنه إذا أرسل جيوشه للغزو عرفهم بوعد الله، وأطلعهم على نصرته لدينه الحنيف حتى يثقوا بالنصر ويتيقنوا من الفوز، ورأى أبو بكر الصديق ذلك وصدق الله وعده.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفعل مثل ذلك فى أيامه ويعدهم بالفتوح ، ونشر الإسلام ، فما وعدهم ربهم حقاً ، ولا بد أن وعده يمضى وينفذ ، ﴿ **وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكمْ وعملوا الصالحات ليَسْتَخْلفنَّهم فى الأرض كَما اسْتَخْلَفَ الذينَ منْ قَبْلهمْ وليمكنَنَّ لهم دينَهمَ الذى ارتَضى لهمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهم منْ بَعْد خوفهم أمْناً** ﴾ (النور : ٥٥) وكان ذلك ما وعدهم الله تعالى، فاستخلف الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين .

وقوله تعالى: ﴿**قل للذيـن كفروا سـتُغلَبون وتُـحشَرون إلى جـهنم وبئسَ المـهاد**﴾ [آل عمران: ١٢)، أى قل لليـهود الذين مالئـوا قريشًا بعد هزيـمة المسلمـين فى غَزوة أُحُد، وتمردوا عليك بنقض العهد: إنكم ستغلبون فى القتال، وصدق الله وعيده، فانقلبوا مهزومين مدحورين، وغير ذلك كثير من آيات القرآن الكريم.

* * *

(١) إعجاز القرآن ص ٧٢ ، التمهيد ص ١٣٠ ، المعترك : ١/ ٢٣٩ .

أخبار الأمم البائدة

ومن الوجوه المعجزة فى القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم الماضية والقرون السالفة[1] ، وقصص الأولين ، وسير الماضين ، وما حدث معهم أو كان فى عصرهم ، وهذا أمر لا يمكن تحصيله إلا بمعرفة القراءة والكتابة ، وكثرة الاطلاع ، ومجالسة العلماء وأهل السير والأخبار والأخذ عنهم. والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، ولم يكن أيضًا ممن عرف بمجالسة أهل السير والأخبار وتلقى العلم على أيديهم، ولو كان يختلف إلى العلماء والمشتغلين بصناعة الأخبار ما خفى أمره على أحد ، فإذا انتفت عن الرسول صفة القراءة والمدارسة؛كان من البدهى أن وقوفه على هذه الأخبار من لدن الله وتأييد من وحيه ، وهذا وجه الإعجاز فى القرآن ، فقد حكى هذه الأخبار حكاية من شهدها وحضرها : ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمنْ أبصرَ فلنفسه ومن عَمىَ فعليْها وما أنا عـليكم بحَفـيظ، وكذلـك نُصرِّفُ الآيـات وليَقـولوا درسْتَ ولـنبيِّـنه لقـوم يَعلَمـون** ﴾ (الأنعام: ١٠٤ ، ١٠٥) ، ليس الأمر كما زعموا أن الرسول كان يدرس ، وإنما ﴿ **تلك من أنباء الغيْب نوحيها إليكَ ما كنتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قَوْمُكَ من قبلِ هذا فاصبرْ إنّ العَاقبةَ للمتقين** ﴾ (هود : ٤٩) .

ولذلك يتحدث القرآن عن قصص الأنبياء ، كقصة آدم عليه السلام وخروجه من الجنة وتوبته ، ماراً بالأنبياء حتى محمد ﷺ .

فعدد الأنبياء لا يحصى ، وقد ذكر بعض المفسرين « أن عددهم يبلغ ثمانية آلاف رسول : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس أجمعين » [2] .

هذه الأقاصيص التى جاءت فى القرآن على لسان محمد ﷺ أدهشت عقول المشركين ، وحيرت ألبابهم ، ودعتهم أن يزعموا زعماً أنه كان يدرس التاريخ خفية ، ويقرأ الكتب خلسة ؛ ولكن الله نفى عنه افتراءهم ، وفضح زعمهم ، وكشف كذبهم ، وجزم القرآن بأن محمداً لم يكن لديه هو ولا قومه علم بهذه الأنباء : ﴿ **وما كنتَ تَتْلُو منْ قَبْلِه من كتاب ولا تَخُطُّهُ بيمينك** ﴾ (العنكبوت : ٤٨) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص٣٤، ٧٢، التمهيد ص١٣٠، ١٣١.

(٢) تفسير الجلالين ص١١٤.

فورود هذه القصص فى القرآن ليس من افتراء محمد ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى ، ولا يخبر بشىء من تلقاء نفسه : ﴿ إنْ هو إلا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ (النجم : ٤) ، « وهذه الأنباء دليل إعجاز القرآن ، إذ ليس فى وسع بشر أن ينبئ بمثل هذه الأخبار عن الماضى ، وربما كان ذلك لأن الماضى الذى يخبر عنه محمد سابق على كل تسجيل ، أو بما يجوز أن تجد له أثراً فى وثيقة » [1] .

ورغم ما ذكر من قصص الأنبياء فى القرآن ، والتأكيد بأن محمداً النبى الأمى لم يكن له عهد بمثل هذه القصص لا عن طريق الدراسة ، ولا عن طريق مخالطة الأحبار اليهود، ولا الرهبان المسيحيين ، وأنّى له أن يعلم ما يعلم من تلك القصص المفصلة ، ويحيط بهذه الأنباء الدقيقة ، وهو الصادق الأمين فى أقواله وأفعاله؟، وأنى له أن يعلم ذلك إن لم يكن بوحى من الله وتأييد من لدنه ، ورغم ذلك كله لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأى القائل بأن مرجع الإعجاز فى القرآن إلى ما فيه من هذه الأخبار والقصص ؛ لأن ذكر الأنبياء وقصصهم لم يرد فى القرآن وحده ؛ بل ورد فى غير القرآن من الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم التى لا تتصف بالإعجاز .

* * *

---

(١) المعقول واللامعقول ص ١٤٣ ، د . زكى نجيب .

الإعجاز العددى

ذكر بعض الباحثين المعاصرين [1] أن التماثل فى الأعداد والتكرار فى الأرقام هو صورة من صور إعجاز القرآن التى لا يمكن للباحث أو الدارس أو القارئ أن يستعرضها إلا وهو يؤمن الإيمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا بوحى من الله سبحانه وتعالى لآخر أنبيائه وخاتم رسله ؛ لأنه شىء فوق القدرة وأبعد من حدود العقل البشرى. فهذا الوجه من الإعجاز وجه قاطع ، ودليله العدد والحساب ، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطىء .

فلفظ الدنيا مثلاً قد تكرر فى القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الآخرة .

ولفظ الشياطين قد تكرر فى القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الملائكة .

ولفظ الموت قد تكرر فى القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الحياة .

وهذا التوازن والتناسق العددى فى موضوعات القرآن لا يمكن أن يكون مصادفة قدرية أو حادثة عفوية؛ لأنه توازن مقصود ، وتناسق غير محدود . وهذه الأعداد المتساوية والأرقام المتماثلة فى ألفاظ القرآن التى تم توزيعها فى الآيات توزيعاً دقيقاً أعظم من أن تحددها طاقات بشرية، أو أجهزة حاسبة أو عقول الكترونية .

ويرى الباحث أن التساوى فى عدد الألفاظ، أو ما يطلق عليه الإعجاز العددى هو المرتبة الأولى للإعجاز ، ثم تأتى الآيات بعد ذلك قمة فى البلاغة والبيان وروعة فى الصياغة والإتقان : أى أن بلاغة القرآن وفصاحته تأتى فى المرتبة الثانية من وجوه الإعجاز بعد الإعجاز العددى الذى وضعه الباحث فى المرتبة الأولى .

هذه هى فكرة الإعجاز العددى كما تصورها الباحث ، وأراد أن يدلل على صحتها ويؤكدها من خلال ألفاظ كثيرة ساقها ، ثم أورد ألفاظاً تقابلها فى المعنى ليجد أن الألفاظ ذكرت بنفس القدر والعدد الذى ذكرت به الألفاظ التى تحمل المعنى المقابل .

وهذا الوجه أقوى من أى وجه آخر من وجوه الإعجاز ؛ لأنه وجه لا تختلف فى نتيجته الآراء ولا تتعدد الاتجاهات ، فهو ليس بتفسير أو تأويل تتعارض فيه الاجتهادات وتتباين النظريات ، ولكنه حساب وأرقام ، وحقائق الحساب دائماً قاطعة ، وشواهد الأرقام أبداً دامغة .

---

(1) الإعجاز العددى للقرآن الكريم - عبد الرازق نوفل ٨ - ١٠ ، ١٨١ ، ١٩٢ .

وقد وجد المؤلف أن ما توصل إليه فى هذا الشأن لا بد أن ينشر وأن يذاع ، وأن يعرض على أوسع نطاق ، وإلى أبعد حد ليحمل الوجه الجديد للإعجاز القرآنى : وهو الإعجاز العددى للقرآن الكريم .

ولعل من الطريف أن نقول : إن فكرة الإعجاز العددى ليست حديثة أو نابعة فى عصرنا الذى يهتم بالأرقام والحساب وشئون الاقتصاد ، وإنما هى فكرة قديمة ذكرها السيوطى فى بعض كتبه ، حيث نراه يشير إليها بقوله : « وقال ابن سراقة فى وجوه إعجاز القرآن :

ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب ، والموافقة والتأليف ، والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ؛ ليعلم بذلك أهل العلم والحساب أنه ﷺ صادق فى قوله: إن القرآن ليس من عنده ، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى عن أهل الحساب وأهل الهندسة »[1] .

ففكرة الإعجاز القائمة على الأعداد والحساب إذن كانت معلومة من قديم ، وقد طرقت من قبل ، إلا أنها لم تطرق بالتفصيل والتأكيد الذى أوضحه لنا مؤلف الإعجاز العددى، فالبذرة وإن كانت سابقة إلا أن المؤلف المعاصر استطاع أن يتعهدها بالعمل والمراجعة حتى أنبتت شجرة عظيمة لها فروع وثمار .

ويجدر بنا أن نذكر بعض الملحوظات على هذا الوجه من الإعجاز نلتزم فيها الدقة والتحقيق سواء فيما تشابه من الألفاظ أو فيما اختلف ، ما دامت الحسابات والأعداد تلتزم بالدقة والإحصاء ، ولا مجال فيها للتفسير أو التأويل أو الاجتهاد ، « لأن حقائق الحساب دائماً قاطعة وشواهد الأرقام أبداً دامغة » .

يقول المؤلف : « تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان ، وعدد ورود لفظ الملائكة فى القرآن الكريم .

فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة فى مثل النص الشريف :

﴿ إن الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتخذوه عَدُوًّا ﴾ (فاطر : ٦) .

وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة فى مثل النص الكريم :

﴿ إذ يُوحِي ربُّك إلى الملائكةِ أنِّيَ مَعكمْ ﴾ (الأنفال : ١٢)»[2] .

---

(١) المعترك : ١/ ٢٢ .
(٢) الإعجاز العددى ص ١٧ .

ولفظ الموت ومشتقاته قد تكرر ١٤٥ مرة .

ولفظ الحياة ومشتقاته قد تكرر ١٤٥ مرة .

وكذلك لفظ النفع ورد فى القرآن ٥٠ مرة .

ولفظ الفساد ورد فى القرآن ٥٠ مرة .

فهذه المساواة الدقيقة فى الأعداد بين اللفظين دليل على إعجاز القرآن ، ولنا بعض الملاحظات نشير إليها فيما يلى :

أولاً : أن العرب لم يكونوا من علماء الحساب أو المهتمين بالأرقام والإحصاء ، وهم وإن كانوا عرباً يشتغلون بالتجارة ويهتمون بالربح والخسارة التى تستلزم الحساب ومراجعة الأعداد ، والتجارة هى قوام حياتهم والمورد الأهم لرزقهم ، واهتمامهم بالربح والخسارة محور تحركاتهم ، ولم يكن لهم غناء عنها فى معاملاتهم الداخلية أو الخارجية على حد سواء ، وقد كان التاجر يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تتجه إلى الشمال أو الجنوب ، التماساً للشراء والبيع وطلباً للربح ، ولا شك أن المسهمين فى هذه القافلة برءوس أموالهم أو بإشرافهم أو بمجهودهم يفتقرون إلى معرفة نصيب كل منهم فى رأس مال القافلة وأرباحها ، وما كان ذلك ليتيسر إلا بالحساب ومراجعة الأعداد ، سواء أكان ذلك بالحفظ والاعتماد على الذاكرة ، أم كان بكتابة الأرقام وتدوينها ، إلا أن ذلك كان بطريقة ساذجة تحفظ عليهم أموالهم ، ويعرفون بها ما لهم أو عليهم من ديون ، وذلك لا يستلزم البراعة الكبيرة فى الحساب ، حتى يتحداهم القرآن فيما برعوا فيه من أعداد وحساب ، اللهم إلا إذا كانت المعجزة أعجب وأعظم حين نفترض أنها جاءت لقوم لم يشتهروا بمثل ما جاءت به المعجزة ، كأن يكون الإعجاز فى القرآن للحساب والأرقام والإحصاء ، والعرب لم تتبحر فى علوم الرياضة والحساب ، أو تشتهر بممارستها حتى يكون ذلك أدعى للعجز والتسليم ، ربما كان الرأى كذلك كما يذهب إليه بعض الباحثين[1] ، ويفضل أن ينفى الصلة بين إعجاز القرآن وفصاحة العرب ، وينعى على الأقدمين الذين يربطون بينهما ، « لأن القرآن يكون أدعى إلى الإعجاز والاعتراف بإعجازه، أن يكون قد بلغ هذا المبلغ من القوة والبلاغة فى لغة لم يعرف أهلها القراءة ولا الكتابة من قبل ، ولم يكن لهم بالتأليف عهد ، فكان نزوله فى هذا الجو على هذا النحو من الكمال معجزة أى معجزة ، أما القول بأن كل نبى أرسل بمعجزة من نوع ما تفوق فيه أهله ليكون ذلك أدعى لتصديقه : فموسى أرسل بالسحر ؛ لأن المصريين كانوا مهرة فى

---

(١) مجلة الأدب ، العدد الرابع عشر السنة الخامسة يوليو ١٩٦٠ . د . محمد كامل حسين .

السحر ، وأن عيسى نزل بمعجزة إحياء الموتى لتفوق قومه فى الطب ، وأن النبى أوتى معجزة القرآن لتفوق العرب فى الفصاحة ، فهى نظرية مفتعلة وبراهينها غير ثابتة ؛ بل الثابت أن الطب لم يكن مزدهراً أبداً فى فلسطين فى عهد المسيح».

ثانياً : أن التساوى فى الأعداد لم يلحظ فى كثير من الألفاظ المتقابلة أو المتماثلة فى القرآن ، فقد ذكر لفظ الأرض ومشتقاتها ٤٦١ مرة وكلها بلفظ المفرد ، ولم يذكر لفظ «أرضون» جمعاً ولا مرة واحدة .

أما لفظ السماء فقد ورد ٣١٠ مرة على هذه الصور : ١٢٠ مرة بلفظ السماء مفرداً ، ١٩٠ مرة بلفظ السموات جمعاً .

والبون شاسع بين هذه وتلك ، سواء من حيث العدد أو من حيث الصورة فى الإفراد والجمع .

ومن الألفاظ المتماثلة نذكر : لفظ موسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام .

فقد ورد لفظ موسى ١٣٦ مرة .

ولفظ عيسى ٢٥ مرة .

ولفظ محمد ٥ مرات ، منها مرة واحدة بلفظ أحمد .

وموسى وعيسى ومحمد تجمعهم رابطة واحدة ؛ هى رابطة النبوة والرسالة ، والتماثل بينهم قائم ، ولكن التساوى بينهم فى عدد الألفاظ المذكورة فى القرآن عن كل واحد منهم ليس قائماً . ونلاحظ مثل ذلك الفرق الكبير بين لفظ النبى والرسول ، ولفظ الأنهار والعيون ومشتقاتهما ، مما يدل على أن التساوى فى بعض الألفاظ التى استشهد بها المؤلف على صحة نظريته ، إنما جاءت عفواً دون قصد أو هدف .

ثالثاً : يتعجب المؤلف حين يجد أن سور القرآن وعددها ١١٤ سورة يطابق العدد الذى تكرر به لفظ الرحيم وهو ١١٤ مرة ، ولم يوضح لنا العلاقة بين التساوى فى عدد ألفاظ الرحيم ، وعدد سور القرآن أو الغرض منه ، فأسماء الله الحسنى عديدة ، وكثير منها لا يطابق عددها عدد سور القرآن ، ولو لاحظ معنى الرحمة فى لفظ الرحيم واعتبرها فى القرآن ، لكان الأجدر أن يعقد الموازنة بين عدد لفظ الرحمة ذاتها ، وهى تشمل «رحمتك ورحمتنا ، ورحمته ، ورحمتى ، والراحمين » ، وعددها ١٢٠ مرة عدا ما اشتق منها من أفعال .

فالأعداد التى وردت فى القرآن الكريم ليس فيها تماثل ، ولا ينبغى أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز .

الإعجاز العلمى للقرآن

يروى السيوطى عن أبى الفضل المرسى أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يُحِطْ بها علماً إلا الله ورسوله ، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة حتى قال ابن عباس : لو ضاع لى عِقال بعير لوجدته فى كتاب الله [1] .

ولذلك نهض العلماء على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم يدرسون كتاب الله دراسة متأنية دقيقة ، وذهبت كل طائفة تعالج القرآن لتستخرج منه ما يتفق والعلوم التى تبحث فيها والفن الذى تشتغل به .

فالقراء تناولوا القرآن لبيان لغاته ومعرفة مخارج حروفه ، وعدّ كلماته وآياته وسوره .

والنحاة تناولوا القرآن من حيث البناء والإعراب فى الأسماء والأفعال والحروف « حتى إن بعضهم أعرب القرآن كلمة كلمة » [2] .

والمفسرون تناولوا القرآن من حيث دلالة ألفاظه على معانيه الظاهرة والخفية ، واحتمال الألفاظ للمعانى المختلفة، وترجيح بعضها على بعض .

والكتاب والشعراء وعلماء البلاغة نظروا إلى جزالة ألفاظ القرآن وبديع نظمه ، وحسن اتساقه، واستخراج ما فيه من معان وبيان وبديع .

والمشتغلون بالعقيدة استخرجوا من القرآن الأدلة العقلية التى تدل على وحدانية الله وتنزيهه عما لا يليق .

وعلماء الفقه دققوا النظر وأحكموا فيه الفكر ليستخرجوا منه الحلال والحرام ، والجائز والممتنع ، وسائر الأحكام المتعلقة بالمواريث والوصايا وغير ذلك .

والمشتغلون بالعلوم النفسية تناولوا ما فى القرآن من آيات لها دلالات نفسية ، أو إيحاءات رمزية ، واهتموا بصفة خاصة بالآيات التى ورد فيها ذكر الأحلام والرؤى المنامية مثل رؤى يوسف عليه السلام .

وعلماء الطب وجدوا فى القرآن آيات تفيد الصحة بعد السقم ، والشفاء بعد المرض

(١) المعترك : ١/ ١٧ ، الإتقان : ٢/ ١٢٦ .　　(٢) المعترك : ١/ ١٨٠ .

كقوله تعالى : ﴿ يخرجُ منْ بُطونها شرابٌ مُخْتلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس ﴾ (النحل : ٦٩)، كما وجدوا فى بعض آياته فضلاً عن طب الأجساد ، طب القلوب وشفاء الصدور .

والملاحظ أن المشتغلين بعلوم القرآن قد توغلوا فى استخراج العلوم المختلفة من القرآن الكريم توغلاً شديداً ، حتى إنهم لم يتركوا علماً من العلوم إلا قالوا : إن القرآن قد تحدث عنه أو أشار إليه إشارة قريبة أو بعيدة ، كأنهم بذلك أرادوا تطبيق الآية الكريمة :

﴿ ما فَرّطْنا فى الكتابِ منْ شىء ﴾ (الأنعام : ٣٨) ، وقوله : ﴿ ويقولون يا ويْلَتنا ما لهَذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحْصاها ﴾ (الكهف : ٤٩) ، فكل ما يحتاج إليه الناس فى أمر دينهم ودنياهم قد ذكره القرآن مفصلاً أو مجملاً .

وبعض العلماء يؤكدون لنا أن بعض الآيات تحمل إشارات كونية تشير إلى إعجاز القرآن من الوجهة العلمية ، ويجمل بنا أن نقول له ولغيره من العلماء الأجلاء : إن إقحام العلم فى تفسير آيات القرآن لبيان كونه معجزاً لا تتفق وما نعرفه عن عقلية العرب وثقافتهم وقت نزول الوحى ، فالعرب حين نزل القرآن كانوا قوماً بسطاء يعيشون على الفطرة ويتصرفون بالسليقة ، ويمارسون حياة شاقة فى بيئة صحراوية ، ويتنقلون على ظهور الإبل من مكان إلى مكان مهما طالت الرحلة وبعدت الشقة ، وطبعى أن العرب لم يكونوا علماء يباهون الأمم بنظرياتهم العلمية ، ويشغلون أنفسهم بالاكتشافات التى تغير مفهوم الناس عن الكون الرحيب وما فيه من عجائب فلكية ، أو أشكال هندسية ، أو معلومات زراعية ، وهم قوم يَمضون حياتهم فى الخيام ويقضون أوقاتهم فى الرعى .

والقرآن ليس كتاب نظريات علمية مفترضة ، أو شارحاً لحقائق علمية ثابتة ، أو معملاً تجرى فيه التجارب ليتوصل منها إلى نتائج علمية تخالف المتعارف عليه ، أو تؤكده، وإنما هو كتاب هداية للبشرية ، تسعد إذا سارت على تعاليمه ، وتشقى إذا ضلت عنها ، وهو منهج متكامل لحياة الفرد والمجتمع لينطلق فى الحدود التى رسمها له دون أن يلجأ إلى تفصيلات وجزئيات علمية ، وتجارب معملية ، وإنما يدع ذلك للعقل بعد أن يأخذ حظه من التقويم ليعمل على صلاح البشرية وإسعاد الخليقة .

وتطبيق النظريات العلمية على النصوص القرآنية لا يتمشى وسُنَّة التطور ، فالنص القرآنى ثابت ومتيقن لا مجال للشك فيه ، أما العلم فإنه متغير ومحتمل بحكم التطور الذى يطرأ عليه ؛ فالنظرية العلمية التى نعتنقها اليوم ونحاول تطبيق النص القرآنى عليها

باذلين الجهد والمشقة حتى نصل فى النهاية إلى الاتفاق الكامل بين النظرية العلمية المعروفة التى بين أيدينا الآن وبين النص القرآنى ، هذه النظرية الثابتة اليوم قد يثبت خطؤها غداً ، وتنتقض بنظرية أخرى تخالفها ومن يدرينا أن هذه النظرية الأخرى قد يطرأ عليها ما يغيرها هى أيضاً ويجعلها نظرية بالية لا قيمة لها علمياً ، ولذلك ينبغى أن نتهيب كثيراً قبل أن نتورط فى إقحام العلم على النصوص القرآنية .

نعم ، قد يشير القرآن إلى بعض الحقائق الكونية إشارة مجملة لا تفصيل فيها ، ومن الواجب أن نتفهمها ونأخذ بها ؛ لأننا نستيقن من صحتها بمجرد ذكر القرآن لها ، والقرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما دام القرآن قد ذكرها مجملة، فكل تفصيل فى الظواهر الكونية من خلال النص القرآنى قد يجعل القرآن نفسه عرضة للتغيير والتبديل ، فالشيء إذا ذكر مجملاً فى القرآن أخذنا به كما هو ؛ لأنه صادق . أما ذكر التفصيلات وحشد الجزئيات والتماس العلل والأسباب فهى غير صحيحة دائماً ، وغير مسلم بها أبداً ، وإنما تحتمل الخطأ والصواب ، ومن المجازفة أن نأخذ بالصواب فى شيء ونسعى إلى تطبيقه على النص القرآنى ، ثم يأتى إلينا العلم نفسه فى المستقبل بما ينقض ما سبق لنا الأخذ به ، والتثبت من صدقه ، واعتباره صواباً، ليؤكد لنا فيما بعد أنه كان خطأ ، ومن ثم لا ينبغى أن نجرى بالنص القرآنى وراء أية نظرية علمية، وإنما نتقبلها فقط حين لا تخالف الحقائق المجملة التى ذكرها القرآن وقررها .

وإذا كنا لا نجد تناقضاً بين الآيات الكونية المذكورة فى القرآن وبين ما يكتشفه العلم فى حاضره أو مستقبله ، فليس هذا دليلاً على إعجازه ، وإنما هو دليل فقط على أنه منزل من قبل الله سبحانه ، و« ليس كل ما نزل من السماء معجزاً ، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية جاءت من قبل الله ، ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن ، ولم يقع بها التحدى كما وقع فى القرآن » [1] .

ونضيف إلى ذلك أيضاً أن الآيات الكونية لا تشمل سور القرآن كلها ، وهى تبلغ ١١٤ سورة ، ولا آياته كلها ، وهى تبلغ ٦٢٣٦ آية على أرجح الآراء ، وإنما تقع فقط فى بعض السور دون بعضها الآخر ، وفى بعض الآيات دون البعض الآخر ، وهى تبلغ ثمانمائة آية كونية كما يقول المؤلف [2] ، وهو عدد قليل إذا قيس بعدد الآيات القرآنية .

(١) إعجاز القرآن ص ٤٧ ، التمهيد ص ١٢٧ ، المعترك : ١/ ١٠ ، الإتقان : ٢/ ١٢٤ .
(٢) الإعجاز العلمى ص ٨ .

ومعلوم أن التحدى قد وقع بأية سورة من سور القرآن ، فكل سورة من سوره فيها إعجاز لا يبلغه أحد ولن يصل إليه أحد ، فلو كان القرآن معجزاً بسبب الإشارات العلمية المتفرقة فى ثنايا بعض آياته لكان كثير من سور القرآن التى تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز ، ولم يقل ذلك أحد حتى العلماء أنفسهم الذين نادوا بالإعجاز العلمى للقرآن .

وبعد فقد ذكرنا من قبل بعض وجوه الإعجاز التى رأى العلماء فيها سبباً كافياً لإعجاز القرآن ، فمنها ما كان بالصرفة ، ومنها ما كان من ذكر سِيَر الأولين ، ومنها ما فيه من تنبؤ بأحداث المستقبل ، ومنها ما يرجع إلى التماثل العددى والتناسب فى الموضوعات المتناقضة أو المتماثلة ، ومنها ما فيه من إشارات تدل على حقائق علمية أثبت العلم صحتها فى العصور الحديثة ، وغير ذلك من وجوه الإعجاز التى ذكرناها والتى لم نذكرها .

* * *

نَظْم القرآن

أما الآن فنتحدث عن وجه آخر يعتبر من أهم وجوه الإعجاز فى القرآن إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، وبه أخذ كثير من العلماء ، ونعنى بهذا الوجه نظم القرآن ووصفه بالبلاغة .

« فالقرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعانى . . . واشتمل على عـمود البلاغة فى وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدّل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة »[1] ، فقد جاء القرآن فى نظمه البديع ، وتأليفه العجيب متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعجز عنه البشر .

والباقلانىّ (ت ٤٠٣ هـ) يرد إعجاز القرآن إلى النظم ، ويسوق لذلك أسباباً عدة»[2]، وقبل أن نذكـر هذه الأسباب يجـمل بنا أن نورد معنى النـظم عند الباقلانـى كما يفســره لنا حين يقول: «وليــس الإعجاز فى نفس الحـروف، وإنما هو فى نظمــها وإحكام رصفهــا، وكونها على وزن ما أتى بــه النبى عليه الصــلاة والسلام، وليس نظمهــا أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ووجود بعضها قبل ووجود بعضها بعد بعض».

والأسباب التى ذكرها الباقلانى تتلخص فى :

١ – إن النظم يباين المألوف من كلام العرب ، ويتميز عن أساليبهم المعتادة رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه ، فالقرآن ليس سجعاً ، وليس شعراً ، وليس خطابة ، وليس جارياً مجرى الرسائل .

٢ – إن العرب رغم فصاحتهم لم يشتمل كلامهم على القدر الوافى من الفصاحة والإبداع ، سواء فى المعانى أو الفوائد أو الحِكم التى اشتمل عليها القرآن بهذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وإلى شاعرهم قصائد

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص ٢٤ – ٢٦ ، وانظر أثر البلاغة فى تفسير الكشاف د . عمر الملاجويش ص ٩٢ ، ط . بغداد .

(٢) التمهيد ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، إعجاز القرآن ص ٣٥ – ٤٧ .

محصورة ربما وقع فيها الاختلال واعترضها الاختلاف وشملها التكلف ، والقرآن رغم طوله وكثرة سوره وآياته متناسب لم يطرأ عليه الاختلال أو الاختلاف أو التكلف ، **﴿ولو كان منْ عند غير الله لوجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** (النساء : ٨٢) .

فالله يخبرنا أن كلام البشر يقع فيه الاختلال ، ويطرأ عليه التفاوت إن امتد وطال ، ولكن القرآن بما يتضمنه من القصص والمواعظ ، والإعذار ، والإنذار ، والوعد والوعيد ، والتبشير والتخويف ، والسير المأثورة ، وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة ، لا نجد فيه تفاوتاً أو اختلافاً ، وإنما جاء كله على درجة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، والجمال والإبداع ، وعلى حد واحد من حسن النظم وبديع الرصف ، أما إذا نظرت إلى كلام البليغ الكامل ، أو الشاعر المفلق، أو الخطيب المصقع رأيت التباين، ولحظت الاختلاف: فالشاعر يتفاوت شعره بحسب الأحوال ، فهو بارع فى معنى معين ، ومقصر فى معنى آخر ، ومنهم من يجود فى غرض ويضعف فى غيره ، ولكل شاعر نصيب من الإجادة فى فن دون فن ، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، وكذلك ترى الاختلاف فى الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام .

٣ - إن نظم القرآن لم يخرج عن عادة كلام الإنس وحدهم ، وإنما خرج أيضاً عن عادة كلام الجن ، فالعرب تعتقد فى مخاطبة الجن ، وروت لهم شعراً وحكت لهم كلاماً والله حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال : **﴿ وإذ صَرفْنا إليك نفراً من الجن يَسْتَمِعُون القُرآنَ فلمّا حَضروه قالوا أنْصِتوا ، فلمّا قُضِىَ ولَّوا إلى قَوْمِهم مُنذِرين ﴾** (الأحقاف : ٢٩) ، والقدر الذى نقله الناس من ذلك تأمله النقاد فلم يجدوا فيه فصاحة تفوق فصاحة كلام الإنس ، بل لعله يقصر عنها ، فالجن إذن تقصر عن الإتيان بمثل القرآن كما يقصر البشر عن الإتيان بمثله ، وقال عز وجل : **﴿ قل لَئِنْ اجتمعتْ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثْلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثْلِه ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ﴾** (الإسراء: ٨٨) .

٤ - إن القرآن اختار ألفاظه ليعبر عن معانى مبتكرة فى وضع الشريعة والأحكام والاحتجاج فى أصل الدين والرد على الملحدين ، ومعلوم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعانى مبتكرة وأسباب مستحدثة ، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعانى ، والمعانى وفق الألفاظ فى انسجام تام وتأليف دقيق كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم .

٥ - إن صناديد العرب وأعيانهم ووجوههم وفصحاءهم سلموا بتقدم القرآن فى الفصاحة والبلاغة ، وأظهروا العجز عن معارضته ، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة ، وأنه يعلو كلام البشر ولا يعلى عليه ، وأما قوله تعالى حكاية عن بعضهم : ﴿ **لو نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا** ﴾ (الأنفال : ٣١) ، فهو قول أهل الضعف من صنعة البلاغة دون المتقدمين فيها ، أو أنهم كاذبون فيما أخبروا عن أنفسهم ، إذ لو كانوا صادقين وقادرين على المعارضة لما اقتصروا على الدعوى أو اكتفوا بالكلام عن المماثلة .

٦ - إن ألفاظ القرآن بريئة من التعقيد والثقل ، خفيفة على الألسنة ، خارجة عن الوحشى المستكره والغريب المستنكر ، ولذلك فهو قريب إلى الأفهام ، تسرع ألفاظه إلى القلب وتسبق عبارته إلى النفس ، وهو مع ذلك عسير المتناول ممتنع المطلب ، غير مطمع يُقدر عليه أو يظفر به ، أما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل ، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة أو يوضع فيه الإعجاز . ا هـ .

ولنا أن نقول : إن موضع الإعجاز فى نظم القرآن لا يعود إلى ألفاظه منفردة ؛ لأن العرب كانوا يأتون بهذه الكلمات صغيرهم وكبيرهم ، فصيحهم وعييهم على حد سواء ، وقيمة الكلمة ليست ذاتية ، وإنما تخلع عليها من الكلمات مجتمعة ، ولا إلى معانيه فقط؛ لأن المعانى لا وجود لها إلا بالتعبير عنها بالألفاظ ، ولا إلى إعراب الكلمات ؛ لأن العرب قادرون على الإتيان بعبارات خالية من اللحن والخطأ ، والإعراب لا دخل له فى الفضل والمزية، وليس هو سبب الفصاحة والبلاغة، وإن كان أساساً فى نظم الكلام.

والنظم كما ذكر عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) ليس فى الألفاظ ، ولا فى المعانى، ولا فى حركات الإعراب ، بل فى اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها فى بعض، وارتباط الثانى بالأول ، كما يتضح فى الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة ، وبين الجملة والجملة فى مجموعة من العلاقات المنظمة المتناسقة بين أطراف الكلام ، وبعبارة أكثر إيجازًا النظم عند عبد القاهر هو[1]: الأسلوب كما نسميه الآن، أو كما يحلو لعبد القاهر أن يسميه: توخى معانى النحو.

وابن عطية (ت ٥٤١ هـ) يؤكد أن إعجاز القرآن كان بسبب نظمه ، وقد أخذ به الجمهور وأهل الفن فى صنعة البلاغة فيقول : « وهذا هو القول الذى عليه الجمهور

(١) انظر أثر النحاة فى البحث البلاغى للمؤلف ص ٣٦٨ - ٣٧٣ نهضة مصر .

والحذاق وهو الصحيح فى نفسه ، والتحدى إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه .

ووجه إعجازه . . . ترتيب ألفاظ القرآن بحيث تكون اللفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيين المعنى بعد المعنى ، وهكذا من أول القرآن إلى آخره ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة [1] .

والعلوى (ت ٧٤٩ هـ) ينقل عن العلماء أقوالهم فى وجوه إعجاز القرآن ويختار من بينها الفصاحة والبلاغة وجودة النظم ، « والذى نختاره من ذلك ما رآه الجهابذة من أهل هذه الصناعة ، فإنهم عوّلوا على خواصٍ ثلاث هى الوجه فى الإعجاز ، وهذه الخواص هى : الفصاحة فى ألفاظه ، والبلاغة فى معانيه ، وجودة النظم ، وحسن السياق ، فإنك ترى القرآن منظومًا على أتم نظام وأحسنه وأكمله»[2] . ..

أما الأستاذ فريد وجدى [3] فقد سلك طريقاً آخر غير فصاحة القرآن ونظمه .

وغير الصرفة التى ذهب إليها بعض العلماء مثل النظام (ت ٢٢٤ هـ) ، وابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) .

فالقرآن روح من أمر الله وله عندنا روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجازه ، والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة منه . . هذه الروحانية العالية هى التى قلبت شكل العالم ، ووطأت للعرب عروش الأكاسرة والقياصرة فى مدة وجيزة ، فالله ﴿يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِه على مَنْ يشاءُ مِن عباده﴾، ولا مشاحّة فى أن القرآن فصيح قد اخرس بفصاحته فرسان البلاغة وملوك البيان ، وهو حكيم ، وهو حق ، وله صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول ، فتتحكم فيها تحكم الملك فى ملكه . . وله فوق بلاغته وعذوبته وحكمته وبيانه روحانية يدركها من لا حظّ له فى فهم الكلام وإدراك البلاغة . هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها ، وظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية بتأثيرها ونتيجتها .

والله وصف كتابه بأوصاف عديدة بأنه بيان وهدى وموعظة ، وأنه بينات ورحمة ، مما يشير بأن وجه إعجاز القرآن فى وجه غير البلاغة العظيمة ، حتى إن الرجل العامى والصبى الجاهل يعتريهما، تهيّب عند تلاوة القرآن . . ولو كانت تلاوته بصوت غير حسن .

---

(١) ابن عطية : ٧١/١ . (٢) الطراز : ٤٠٤/٣ .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ، مادة قرأ ، المجلد ٧ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ عبدُ القاهر بن عبد الرحمن رضى الله عنه : الحمدُ لله ربِّ العالمين حَمْدَ الشاكرين ، وصلَواتُه على النبىِّ محمد وآله أجمعين .

(جمل من القول فى إعجاز القرآن)

١ - اعلمْ أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخصُّ وأَوْلَى، وضروباً من العبارة هو بتأْديَته أَقومُ ، وهو فيه أَجلَى ، ومأخذاً إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقربَ ، وبالقَبُول أَخلقَ، وكان السَّمْع له أَوْعَى ، والنفس إليه أَميلُ . وإذا كان الشىء متعلقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه [(١)] ، كان من خير ما يُستَعان به على تقريبه من الأفهام ، وتقريره فى النفوس ، أنْ يوضع له مثالٌ يكشف عن وجْهه ويُؤْنس به [(٢)] ، ويكون زماماً عليه يُمسِكه على المُتَفَهِّم له والطالب عِلْمَهُ .

* * *

٢ - وهذه جُمَل من القول فى بيان عَجْز العرب حين تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن ، وإذعانهم وعلمهم أنّ الذى سمعوه فائتٌ للقُوَى البشرية ، ومُتجاوزٌ للذى يتَّسع له ذَرْعُ المَخلوقين [(٣)] ، وبما يتَّصل بذلك مما له اختصاصٌ بعلم أحوال الشعراءِ والبلغاء ومراتبهم ، وبعلم الأدب جُمْلة قد تحرَّيت فيها الإيضاحَ والتبيينَ ، وحَذَوْتَ الكلام حذواً [(٤)] هو بعُرْف علماء العربية أشبهُ ، وفى طريقهم أذهبُ ، وإلى الأفهام جُمْلةً أقربُ . وأسأل الله التوفيقَ للصواب والعونَ عليه ، والإرشادَ إلى كُلِّ ما يُزْلف لديه [(٥)] ، إنه على ما يَشاءُ قديرٌ .

* * *

٣ - معلومٌ أنَّ سَبيلَ الكلام سبيلُ ما يدخله التفاضُلُ ، وأن للتفاضُل فيه غايات ينأى بعضُها عن بعض ومنازلَ يَعْلُو بعضُها بعضاً ، وأن علمَ ذلك علمٌ يَخصّ أَهله ، وأن الأصل والقُدْوة فيه العربُ ، ومن عداهم تَبَعٌ لهم ، وقاصرٌ فيه عنهم ، وأنه لا يجوزُ أن يُدَّعَى

(١) مقيساً على ما سواه : قدره على مثاله . (٢) يؤنس به : يزيل وحشته .
(٣) ذرع المخلوقين : طاقتهم . (٤) حذوت الكلام : قطعته .
(٥) يزلف لديه : يقرب إليه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى رضى الله عنه :

١ - كل معنى من المعانى يعبر عنه بلفظ خاص به حتى يؤديه كما هو ، أو يعبر عنه بعبارة توضحه وتجليه ، فيكون أقرب إلى الفهم وأجدر بالقبول ، وخير ما يستعان به على تقريب المعنى إلى الأفهام ، أن يُوضَع له مثال يكشف عنه ويُؤتنس به .

❋ ❋ ❋

٢ - يورد عبد القاهر مجموعة من الأقوال تبين عجز العرب حين تحداهم الرسول ﷺ إلى معارضة القرآن ، واعترافهم بأن الذى سمعوه من القرآن خارج عن طوق البشر ، كما ذكر أحوال الشعراء ومراتبهم ، والبلغاء وتفاوتهم ، ونحا فى إيضاحه وبيانه إلى ما تعارف عليه علماء العربية من بلاغة القول وحسن العبارة ، ويسأل الله التوفيق والسداد فى هذه المهمة .

❋ ❋ ❋

٣ - للكلام منازل يعلو بعضها بعضاً ويتفاضل بعضه على بعض ، والأصل فى حسن القول وجمال العبارة للعرب ، ومن عداهم تبع لهم .

ولا يجوز للمتأخرين عن زمن النبى أن يقولوا : إنهم زادوا على الخطباء والبلغاء فى زمن النبى شيئاً ؛ بل نراهم يضعون من أنفسهم ويعلون من شأن الأولين ، فهم يحاكونهم ويحاولون السير على منوالهم .

والجاحظ يدعى للعرب الفضل على الناس قاطبة فى البلاغة والخطابة ، ويناظر فى ذلك غير العرب ويجهلهم ويسفه أحلامهم فى إنكارهم فضل العرب ، والأمر فى ذلك ليس خافياً على أحد ، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند .

للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبى ﷺ الذى نَزَل فيه الوحىُ ، وكان فيه التَّحدى ، أنهم زادوا على أولئكَ الأوَّلينَ ، أو كَمَلُوا فى علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يَكْملُوا له ، كيفَ ؟

ونحن نراهم يُخْملُون عنهم أَنْفُسَهُم [1] ، ويبرأون من دَعْوى المداناة معهم ، فضلاً عن الزِّيادة عليهم .

هذا خالدُ بن صَفْوان يقول : « كيف نُجَاريهم وإنَّما نَحْكيهم ؟ أَمْ كيف نُسابقُهم ، وإنّما نجرى على ما سَبَق إلينا من أَعْراقهم ؟ » [2] .

ونَرى الجاحظَ [3] يَدّعى للعرب الفضلَ على الأمم كُلِّها فى الخطابة والبلاغة ، ويُنَاظر فى ذلك الشُّعُوبية [4] ، ويُجَهِّلهم ويُسَفِّه أحلامهم فى إنكارهم ذلك ، ويَقضى عليهم بالشِّقْوة وبالتَّهالُك فى العصبيّة ، ويُطيل ويطْنبُ [5] ، ثم يقولَ :

« ونحن أَبقاك الله إذا ادَّعَيْنا للعرب الفضلَ على الأمم كلِّها فى أصناف البلاغة ، من القصيد والأَرْجَاز [6] ، ومن المنثور والأسْجاع [7] ، ومن المُزْدَوَج [8] وما لا يَزْدَوِج ، فَمَعَنَا - على أَنَّ ذلك لهم - شاهدٌ صادقٌ ، من الدِّيباجة [9] الكريمة ، والرَّونق العجيب ، والسَّبْك [10] والنَّحْت الذى لا يستطيع أشعرُ النَّاس اليومَ ولا أَرْفَعُهم فى البيان أن يقول مثْلَ ذلك ، إلّا فى اليسير والشىء القليل » . انتهى كلامه .

والأمر فى ذلك أظهر من أن يخفَى ، أو أن يُنْكره إلا جاهلٌ أو معاندٌ .

* * *

٤ - وإذا ثَبت أنهم الأصلُ والقُدْوةُ ، فإنّ علْمَهم العلمُ ، فَبنَا أن نَنْظُر فى دلائل أحوالهم وأَقْوَالهم حين تُلىَ عليهم القرآن وتُحُدُّوا إليه ، ومُلئَتْ مسامعه من المُطَالبة بأن يأتوا بمثله، ومن التَّقريع بالعَجز عنه ، وبَتِّ الحُكْم بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه .

وإذا نظرنَا وجدنَاها تُفْصح بأنَّهم لم يشكُّوا فى عَجْزهم عن معارضته والإتيان بمثله ، ولم تُحَدِّثْهم أَنْفسُهم بأَنَّ لَهُم إلَى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه .

---

(١) يخملون عن أنفسهم : يخفضونها . (٢) من أعراقهم : أصولهم .

(٣) الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥) .

(٤) الشعوبية : نزعة تحاول الحط من شأن العرب . (٥) يطيل ويطنب : يزيد فى الكلام ويكثر .

(٦) الأرجاز : جمع أرجوزة ، وهو ضرب من الشعر متتابع الصوت واللحن .

(٧) كلام مقفى غير الموزون .

(٨) المزدوج : شبه بعضه بعضاً فى السجع أو الوزن . (٩) الديباجة الكريمة : الأسلوب الحسن .

(١٠) سبك الشىء : انصهاره وإفراغه فى قالب .

٤ - وإذا ثبت أن الأصل والقدوة فى البلاغة هم العرب ، فينبغى علينا أن ننظر فى أقوالهم وأحوالهم حين تحداهم الرسول ﷺ أن يأتوا بمثل القرآن ، وتلى عليهم التحدى المرة تلو المرة ، واعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله فى كل مرة ، ولم تكن لديهم بارقة أمل فى معارضة القرآن بأى وجه من الوجوه .

* * *

(دلائل أحوال العرب وأقوالهم)

٥ - أمّا « الأحوال » فدلّت من حيثُ كان المتعارَفُ من عادات الناس التى لا تختلف ، وطَبائعهم التى لا تَتَبَدَّل ، أنْ لا يسلِّموا لخصومهم الفضيلةَ وهم يَجدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا يَنْتَحلون العجزَ [١] وهم يستطيعون قَهْرهم والظهورَ عليهم ، كيفَ ؟ وإن الشّاعرَ أو الخطيبَ أو الكاتبَ يبلغه أنّ بأقصى الإقليم الذى هو فيه من يَبْأَى بنفسه [٢] ، ويُدلُّ [٣] ، بشعْر يقوله ، أو خُطْبة يقوم بها ، أو رسالة يعملَها ، فَيَدْخُله من الأَنَفَة [٤] والحَمِيَّة ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظْهر ما عنده من الفضل ، ويبذُلَ ما لديه من المُنَّة [٥] ، حتى إنه ليتوصَّل إلى أن يَكْتُب إليه ، وأن يعْرِض كلامه عليه ، ببعض العلَل وبنوع من التَّمحُّل هذا، وهو لم ير ذلك الإنسانَ قطُّ ، ولم يكن منه إليه ما يَهُزُّ ويُحرِّك ويَهيجُ على تلك المعارضة ، ويدعُو إلى ذلك التَّعَرُّض .

وإن كان المُدَّعى ذلك بمرأًى منه ومَسْمَع ، كان ذلك أدعى له إلى مُباراته ، وإلى إظهار ما عندَه ، وإلى أن يعرف الناسُ أنه لا يُقَصِّر عنه ، أو أنَّه منه أفضلُ .

فإن انضافَ إلى ذلك أن يَدْعُوَه الرجلُ إلى مُمَاتَنَته [٦] ، ويُحرِّكه لمُقاولته [٧] ، فذلك الذى يُسهر ليلَهُ ويَسْلُبُه القرارَ ، حتى يَسْتفرغَ مجهودَه فى جَوابه ، ويبلغ أقْصَى الحَدِّ فى مُناقضته .

وقد عرفتَ قصَّة جرير والفرزدق [٨] ، وكُلِّ شاعرين جمعَهما عصرٌ ، ثم عرَض بينهما ما يَهيج على المقاولة ، ويدعُو إلى المفاخرة والمنافرة [٩] ، كيف جَدَّ كلّ واحد منهما فى مغالبة الآخر ، وكيف جعل ذلك هَمَّهُ وَوُكْدَه [١٠] ، وقَصَرَ عليه دهره ؟ هذا ، ولَيْسَ به، ولا يَخْشَى إلا أن يُقضَى لصاحبه بأنه أشْعرُ منه ، وأنّ خاطرَه أحَدُّ ، وقوافيَهُ أشْردُ [١١] ، لا يُنازعه مُلكاً ، ولا يفتَاتُ عليه [١٢] بغَلَبته له حقًا ، ولا يُلزمه به إتَاوةً [١٣] ، ولا يضرب عليه ضَريبَة ؟

* * *

---

(١) لا ينتحلون العجز : لا يدعونه .
(٢) يبأى بنفسه : يفخر .
(٣) يدل بشعره : يباهى به .
(٤) أنف : استكبر ، أى ادعى التكبر والشموخ .
(٥) المنة : القوة .
(٦) مماتنته : ليظهر أيهما أمتن وأقوى فى حجته .
(٧) مقاولته : مفاوضته فى القول أيًّا كان .
(٨) جرير والفرزدق : شاعران فى العصر الأموى .
(٩) المنافرة : المخاصمة .
(١٠) وكده : هدفه وقصده .
(١١) قوافيه أشرد : أكثر انتشاراً .
(١٢) افتات عليه : انكسر أمامه .
(١٣) إتاوة : جزية .

٥ – فمن عادة الناس التى جبلوا عليها ألا يسلموا بالعجز وهم قادرون على دفعه ، فالشاعر أو الخطيب أو الكاتب إذا بلغه من بعيد أن هناك من يفخر بشعره أو خطبته أو برسالة كتبها دخلت الحمية نفسه واشتد لمعارضته .

أما إذا كان المدعّى بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى معارضته ، وأنه لا يقصر عنه ؛ بل يفوقه موهبة وأداء .

وإذا أضيف إلى ذلك أن صاحب الرسالة يدعوه إلى المعارضة ويحركه للمقاولة ، كان ذلك بمثابة الدفعة له أن يبلغ أقصى ما عنده ؛ ليصمد أمام الدعوة ويعمل على مناقضته والتغلب عليه .

وهذا ما حدث بين كل اثنين جمعهما عصر واحد ، حدث بين جرير والفرزدق ، وأبى تمام والبحترى ، والمتنبى وأبى فراس ، حيث جدّ كل واحد فى التغلب على الآخر ، وأخشى ما يخشى الشاعر أن يحكم لخصمه أنه تغلب عليه ، وأن شعره أجود أو خاطره أحدّ .

* * *

٦ - وإذا كان هذا واجباً بين نَفْسين لا يَرُومُ [١] أحدُهما من مُباهاة صاحبه إلا ما يَجْرى على الألْسُن من ذكْره بالفَضْل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر فى صَمِيم العرب ، وفى مثل قُرَيْش ذوى الأنفسَ الأبيَّة والهِمَم العليَّة ، والأنفَة والحَميَّة مَنْ يَدَّعى النبوَّةَ ، ويخبرُ أنه مبعوثٌ من الله تعالى إلى الخلقِ كافَّة ، وأنه بَشيرٌ بالجنّة ونَذيرٌ بالنار ، وأنه قَدْ نَسَخ به كل شريعة تقدَّمته ، ودين دان به الناس شرْقاً وغرباً ، وأنه خَاتَمُ النبيِّين ، وأنه لا نَبيَّ بعده ، إلى سَائر مَّا صَدع به ﷺ [٢] ، ثم يقول : « وحُجَّتى أن الله تعالى قد أنزل عَلَيَّ كتاباً عربيا مُبيناً تَعْرِفون ألفاظَه ، وتفهَمون معانيَهُ ، إلا أنَّكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ، ولا بعَشْر سُوَر منه ، ولا بسُورة واحدة ، ولو جَهدتم جَهْدكم ، واجتمع معكم الجنُّ والإنسُ » ، ثم لا تَدْعُوهم نُفوسهُم إلى أنْ يعارضوه ، ويُبيِّنوا سَرَفَهُ [٣] فى دعواه ، مع إمكان ذلك ، ومع أنَّهم لم يسمعوا إلا ما عَنْدهم مثلُه أو قريبٌ منه ؟

هذا ، وقد بلغ بهم الغَيْظُ من مقالته ، ومن الذى ادَّعاه ، حَدًّا تَركوا معه أحْلامَهم الرَّاجحة ، وخرجُوا له عن طاعة عُقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكُلِّ قبيح ولَقُوهُ بكل أذًى ومكروه ، ووقَفُوا له بكل طريقٍ ، وكادُوه وكُلَّ من تَبعَه بضروب المكايدة ، وأرادوهم بأنواع الشَّر .

وهل سُمِعَ قَطُّ بذى عقل ومُسْكَة [٤] استطاع أن يُخْرِسَ خصماً له قد اشْتَطَّ [٥] فى دعواه بكلمة يُجيبه بها ، فترَكَ ذلك إلى أُمُور يُسَفَّه فيها ، ويُنْسَب معها إلى ضيقِ الذَّرْع [٦] والعَجْز، وإلى أنَّه مغلوب قد أعْوَزَته [٧] الحيلةُ ، وعَسُرَ عليه المخلَص ؟ [٨] .

أم هَلْ عُرِف فى مَجْرى العادات ، وفى دَواعي النفوس ومَبْنَى الطبائع ، أنْ يدَعَ الرجلُ ذو اللُّبِّ [٩] حُجَّته على خصمه ، فلا يَذْكُرها ، ولا يُفْصح بها ، ولا يُجلِّى عن وجهها ، ولا يُريه الغلطَ فيما قال ، والكَذبَ فيما ادَّعى ، لا ، ولا يَدَّعي أنَّ ذلك عنده ، وأنَّه مستطيع له ، بَلْ يَجْعَلُ أوَّل جَوابه له ومعَارضته إيَّاه ، التَّسَرُّعَ إليه والسَّفَهَ [١٠] ، والإقدامَ على قَطْع رَحمِه ، وعلى الإفراط فى أذاه ؟

أم هل يجوزُ أنْ يخرُجَ خارجٌ من الناس على قومٍ لهم رياسة ، ولهم دينٌ ونحْلَةٌ [١١] ،

---

(١) يروم : يودّ .

(٢) صدع به ﷺ : جهر به .

(٣) يبينوا سرفه : إسرافه .

(٤) مسكة : ما يتمسك به ويحرص عليه .

(٥) اشتط : أمعن وجاوز الحد .

(٦) ضيق الذرع : ضعف القدرة .

(٧) أعوزته الحيلة : افتقدها .

(٨) وعسر عليه المخلص : صعب عليه التخلص .

(٩) ذو اللب : ذو العقل .

(١٠) سفه الرجل : خف وطاش وجهل .

(١١) نحلة : مذهب وعقيدة .

٦ - وإذا كان هذا حادثاً بين شخصين لا يود أحدهما من معارضة الآخر سوى أن يحكم له بالفضل ، فكيف إذا كان هذا الأمر فى قريش ذوى الأنفة والحمية وظهر بينهم من يدعى النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله للخلق كافة إنسٍ وجن مبشراً بالجنة ومنذراً بالنار ، وأنه خاتم النبيين ، وقد نزل عليه كتاب تعرفون ألفاظه وتدركون معانيه وتعجزون عن مجاراته أو الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، ثم لا تدعوهم أنفسهم إلى معارضته وبيان إسرافه فى دعواه .

وقد بلغ بهم الغيظ مبلغاً شديداً حتى لقوه بكل أذى ومكروه ، وهل سمع قط أن صاحب عقل استطاع أن يبارى خصمه ، فترك مباراته وأظهر العجز وضيق الجهد ، وأنه مغلوب لم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم؟

وهل جرت العادة أن يدع اللبيب حجته فلا يذكرها ولا يبدى لخصمه الغلط فيما قال، ويسرع فى تسفيهه ويفرط فى أذاه ؟

وهل يجوز أن يواجه رجل قوماً لهم دين ورئاسة فيثير عليهم الناس ، ويدبر فى قتل كبارهم وأشرافهم وسبى ذراريهم وأولادهم ، ثم لا يعرضون له فى دعواه ، مع أن ذلك ليس بمتعذر ولا ممتنع ، وإنما هو أمر سهل ميسور ؟

وهل مثل ذلك إلا مثل رجل أتى بدعوى وأحضر بينة على دعواه ، وعند المدعى عليه ما يبطل تلك الحجة ، فيدع إظهار ذلك ويلجأ إلى الخصومة والمحاربة التى يقتل فيها القريب والصديق ، ويسلب منه المال والعتاد ، ثم يقول : لقد تركت مقارعته الحجة بالحجة تهاوناً بأمره ، ولو كان هذا الرجل من المجانين لما صح منه أن يفعل ذلك ، فكيف بقومٍ هم أرجح الناس رأياً وأثقبهم بصيرة ؟

* * *

فَيُؤَلِّبَ (١) عليهم الناس ، ويُدَبِّرَ في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قَتْل صَناديدهم(٢) وكبارهم ، وسَبْي (٣) ذَرَاريهم وأولادهم ، وعُمْدَتُه التي يجد بها السبيلَ إلى تألُّف مَن يتألَّفه ، ودُعاء من يدعوه ، دَعْوَى لَهُ ، إذا هي أُبْطلت بَطَل أمرُه كُلُّه ، وانتقَضَ عليه تدبيرُه ، ثُمَّ لا يُعْرَض لَه في تلك الدعوى ، ولا يُشْتَغَل بإبطالها ، مع إمكان ذلك ، ومع أنه ليس بمتعذِّر ولا ممتنع ؟

وهل مَثَلُ هذا إلا مَثَلُ رَجُلٍ عَرَض له خَصْمٌ من حيث لم يَحْتَسِبْه (٤) ، فادَّعى عليه دعوى إنْ هي سُمِعَت كان منها على خَطَر في ماله ونفسه ، فأحضر بيِّنَةً (٥) على دَعْواه تلك ، وعند هذا المدَّعَى عليه ما يُبْطل تلك البيِّنة أو يعارضُها ، وما يَحُول على الجُمْلة بينه وبين تَنْفيذ دعواه (٦) ، فيدَعُ إظهارَ ذلك والاحتجاجَ به ، ويُضْرِب عنه جُمْلةً (٧) ، ويدَعُه وما يُريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصيرُ الحالُ بينهما إلى المُحَارَبة ، وإلى الإخطار بالمُهَج (٨) والنُّفُوس ، فيُطَاوِلُه الحربَ ، ويُقْتَل فيها أولاده وأعزَّتَه ، وتُنْهَكُ عشيرَته ، وتُغْنَم أموالُه ، ولا يَقَعُ له في أثناء تلك الحال أن يرجعَ إلى القاضي الذي قضى لخصمه بَدِيًّا (٩) ولا إلى القوم الذين سَمِعوا منه وتصوَّرُوه بصورة المحقِّ فيقول : « لقد كانت عندي - حين ادَّعَى ما ادَّعَى - بينةٌ على فساد دعواه وعلى كَذِب شهوده ، قد تركتها تهاونًا بأمره ، أو أُنْسيتها ، أو مَنَع مانعٌ دون عَرْضها ، وها هي هذه قد جئتكم بها ، فانظروا فيها لتَعْلَمُوا أنكم قد غُرِرْتم ؟ » (١٠)

ومعلوم بالضرورة أنّ هذا الرجل لو كان من المجانين ، لما صحَّ أن يفعلَ ذلك ، فكيف بقوم هم أرجحُ أهل زمانهم عقولاً ، وأكملُهم معرفةً ، وأجزلُهم رأياً ، وأثْقَبهم (١١) بَصِيرة ؟ فهذه دلالة « الأحوال » .

* * *

(دلائل:الأقوال الدالة على عجز العرب حين تُحُدُوا بالقرآن)

٧ - وأمّا « الأقوالُ » فكثيرة :

منها حديث ابن المُغيرة ، رُوِيَ أنه جاءَ حتى أتَى قُرَيْشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً =

(١) يؤلب عليهم الناس : يحرضهم عليه ويغريهم به . (٢) صناديدهم : رؤساؤهم وزعماؤهم .
(٣) سبي ذراريهم : أسر أولادهم ومن خرج من أصلابهم .
(٤) لم يحتسبه : لم يتوقعه . (٥) البينة : الدليل والحجة .
(٦) تنفيذ دعواه : إبطال ما ادعاه . (٧) ويضرب عنه جملة : يتركه تماماً .
(٨) المهج : جمع مهجة وهي الروح . (٩) بديًا : من أول الأمر .
(١٠) غررتم : خدعتم . (١١) أثقبهم بصيرة : أشدهم وأقواهم حجة .

٧ - هذه كانت أحوالهم ، أما أقوالهم فكثيرة ، منها : حديث ابن المغيرة - وكان سيداً فى قومه وله هيبة فى قريش كلها - الذى أتى مجلس قريش وقال : لقد انتشر أمر محمد والناس يأتون غداً ويسألونكم عنه ، فماذا تقولون ؟ وبماذا تردّون ؟ قالوا : نقول : إنه مجنون ، قال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه عاقلاً فصيحاً فيكذبونكم .

نقول : إنه شاعر ، قال : إن كلامه لا يشبه الشعر فيكذبونكم .

نقول : هو كاهن ، قال : إن قوله لا يشبه ما يقوله الكهان .

قالت قريش : لقد أسلم الوليد ، وسوف يتبعه خلق كثير فى الإسلام ، وخافوا على مكانتهم .

* * *

ذهب أبو جهل إلى الوليد بن المغيرة يحاول أن يثنيه عن عزمه لأنه قد دخل الإسلام فى ظنه .

أتى الوليد قريشاً فقال : أتزعمون أنى دخلت فى الإسلام ، وأُقسم إنى ما فعلت .

قلتم : إن محمداً مجنون وليس هو بمجنون .

وقلتم : إنه شاعر وليس كذلك فأنتم شعراء .

وقلتم : إنه كاهن ، ولا يتحدث بشىء ، إلا أن يقول : إن شاء الله .

وإنما أقول : إنه ساحر يفرق بين الرجل وزوجه ، وبين الأب وابنه ، وبين المرء وأخيه ومواليه ، فاجتمع رأيهم على الأخذ برأى الوليد بن المغيرة : بأنه ساحر .

ترك قريشاً ومر بأصحاب الرسول ، وهم فى المسجد ، فقالوا له : هل لك فى التوحيد فهو خير من الشرك ؟ قال لأصحاب محمد : إنه ساحر ، وما قوله إلا رواية عن غيره ، وعبس فى وجوههم وعاد إلى أهله مكذباً مستكبراً .

* * *

بالموسم ، وقد فَشَا [1] أَمْرُ هذا الرجل في الناس ، فهُمْ سائلوكم عنه فماذا تَرُدُّون عليهم ؟ فقالوا : مجْنُون يُخْنَق [2] ،فقال : يأْتُونه فيكلِّمونه فيَجدُونَه صحيحاً فصيحاً عاقلاً ، فيكذِّبونكم ! قالوا : نقول : هو شاعر ، قال : هم العربُ ، وقد رَوَوْا الشعر ، وفيهم الشعراء، وقوله : ليس يُشْبِه الشعرَ ، فيكذِّبونكم ! قالوا : نقول : هو كاهنٌ ، قال : إنهم لَقُوا الكُهَّانَ ، فإذا سمعوا قَولَهُ لم يجدوه يُشْبِه الكَهَنة ، فيكذِّبونكم !

ثم انصرف إلى منزله فقالوا : صبَأَ الوليد - يعنون : أسلم - ولئن صبَأَ لا يبقى أحدٌ إلا صبَأَ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أَنا أَكْفيكَمُوه [3] ، قال : فأَتاه محزوناً ، فقال : ما لكَ يَا ابن أَخ ؟ قال : هذه قريشٌ تجمَعُ لك صَدَقَةً يتصدَّقون بها عليك ، تَسْتَعين بها على كِبَرك وحاجتك ، قال : أَولستُ أكثر قريش مالاً ؟! قال : بَلَى ، ولكنهم يزعُمون أنك صبَأْتَ لتُصيبَ من فَضْل طعامِ محمد وأَصحابه ، قال : والله ما يَشْبَعون من الطعام ، فكيف يكون لهم فضول ؟!

ثم أَتى قريشاً فقال : أتزعمون أَنى صبَأْتُ ؟ ولَعَمْرى [4] ما صبأْتُ ، إنكم قلتم : محمَّد مجنونٌ ، وقد وُلِد بين أَظْهُركم [5] لم يَغِبْ عنكم ليلةً ولا يوماً ، فهل رأيتموه يُخْنَق قطُّ ؟ فكيف يكون مجنوناً ولم يُخْنَقْ قطُّ ؟ وقلتم : شاعر ؟ وأَنتم شُعَراء ، فهل أحد منكم يقول ما يقول ؟ وقلتم : كاهن ، فهل حدَّثكم محمد فى شىء يكون فى غد إلا أَن يقولَ إن شاءَ الله ! قالوا : فكيف تقول يا أَبا المغيرة ؟ قال : أَقولُ هو ساحِرٌ ، فقالوا : وَأَىُّ شىء السِّحْر ؟ قال : شىء يكون ببابل [6] ، مَنْ حَذَقه [7] فَرَّق بين الرجلَ وامرأَته ، والرجل وأَخيه ، إنَّا لله ، أَما تعلمون أَن محمداً فرَّق بين فُلان وفلانةَ زوجته ، وبين فُلانَ وابنه ، وبينَ فُلان وأَخيه ، وبين فُلان ومواليه [8] ، فلا ينفعهم ولاَ يلتفتُ إليهمَ ولا يأْتيهم ؟ قالوا : بلى ، فاجتَمع رأْيُهم على أَن يَقُولوا : إنه ساحرٌ ، وأَن يردُّوا الناسَ عنه بهذا القولَ .

وانصرفَ ، فمرَّ بأَصحاب النبى ﷺ مُنْطَلقاً إلى رَحْله ، وهم جلوس فى المسجد ،فقالوا : هل لك يا أَبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقالَ : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم إلا سحراً ، ومَا هو إِلا قولُ البَشَر يَرْوِيه عن غيره • وعَبَس فى وجوههم وبَسَرَ [9] ، ثم أَدبرَ [10] إلى أَهله مكذِّباً ، واستكبر عن حديثهم الذى قالوا له وعن الإيمان ، فأَنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّه فَكَّرَ وقَدَّر * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (المدثر : ١٨ ، ١٩) الآية .

٨ - ومنه ما رواه محمد بن كعب القُرَظِىّ قال [11] : حُدِّثتُ أَنَّ عُتبة بن ربيعة - وكان

---

(١) فشا أمره : انتشر .
(٢) مجنون يخنق : به داء وعلة .
(٣) أكفيكموه : أمنعه عن اتباع محمد .
(٤) لعمرى : قسمى .
(٥) بين أظهركم : بينكم ولا يخفى عليكم أمره .
(٦) بابل: مدينة قديمة بأرض الرافدين .
(٧) حذقه : مهارته .
(٨) الموالى : تطلق على العبيد وهو المراد هنا.
(٩) عبس وبسر : قطب وجهه وزاد عبوساً .
(١٠) أدبر : عاد .
(١١) جاءت هذه الرواية فى سيرة ابن هشام : ٣١٣/١ ، كما يقول الأستاذ شاكر .

٨ - أسلم حمزة عم الرسول ، وتبعه جمع من الناس ، فقام عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليماً مشركاً إلى رسول الله ، وهو فى المسجد وحده يريد أن يغريه بترك الدعوة إلى التوحيد، قال له :

إن كنت تريد مـالاً جمَعنا لك من أموالنا حتى تصبح أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملْكاً جعلناك مَلِكاً علينا ، وإن كان الذى مسّك طائف من الجن دعونا لك الطبيب حتى نبرئك من علّتك .

فلما فرَغ من كلامه قرأ الرسول ﷺ أول سورة فصلت حتى بلغ آية السجدة فسجد . وقال لعتبة : قد سمعت ما قرأت فأنت وذاك .

وعاد عتبة إلى قومه بوجه غير الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قال : إنى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط : ليس شعراً ، ولا سحراً ، ولا كهانة ، فخلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، اعتزلوه ولا تناوشوه ، فإن أصابته العرب فقد قاموا بما كنتم تريدون القيام به دون أن تلطّخوا أيديكم بدمه ، وإن بذّهم وانتصر عليهم كنتم أسعد الناس به ، فأنتم قومه .

قالوا : سحرك محمد بلسانه وقرآنه .

قال : قلت لكم رأيى فاصنعوا ما بدا لكم .

❊ ❊ ❊

سيِّداً حليماً – قال يوماً : ألا أقُومُ إلى محمَّد فأُكلِّمه فأعرضُ عليه أُموراً لعلّه أن يقبلَ منها بعضها ، فنُعْطيه أيَّها شاءَ ؟ – وذلك حين أسْلم حَمْزَةُ [1] رضى الله عنه ، ورأوا أصحابَ النبيِّ ﷺ يكثرون – قالوا : بلى يا أبا الوليد ! فقام إليه ، وهو ﷺ جالس فى المسجد وَحْدَه ، فقال: يا ابن أخى ! إنَّك منَّا حيثُ علمتَ من السِّطَه فى العشيرة [2] والمكان فى النَّسب ، وإنَّك أتيتَ قومَك بأمر عظيم ، فرَّقْت بَيْنَ جماعتهم ، وسَفَّهْتَ [3] أحلامَهم ، وعبْتَ آلِهَتَهُم ، وكَفَّرت من مَضى من آبائهم ، فاسمع منِّى أعْرِضْ عليك أُموراً تَنْظُر فيها ، لعلكَ أن تقبَلَ منها بعضَها ، فقال رسولُ الله ﷺ : قُل ، قال : إنْ كنتَ إنّما تريدُ المالَ بمَا جئتَ به من هذا القول ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً ، وإنْ كُنْتَ تريد شَرَفاً سوَّدناك [4] حتى لا نقطع أمْراً دُونك ، وإن كنتَ تريدُ به مُلكاً ملَّكناكَ علينَا ، وإن كانَ هذا الذى بك رَئِياً لا تستطيع ردَّه عن نَفْسك [5] ، طلبنا لك الطبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرئَك منه ، فإنَّه ربَّما غلب التَّابع [6] على الرجلِ حتى يُدَاوَى منه ، أو لعلَّ هذا شعْرٌ جاشَ به صَدْرُكَ ، فإنكم لعمرى بنى عبد المطلب تَقْدرون من ذلك على ما لا نَقْدر عليه • حتى إذا فَرَغ قال له رسول الله ﷺ : أوَقَدْ فَرَغْتَ ؟ قالَ : نعم ، قال : فاسمع منِّى ، قال : قُلْ ، قال : بسْمِ الله الرَّحمَنِ الرَّحيم ﴿ حم تَنْزِيلٌ منَ الرَّحْمَنِ الرَّحيم ، كتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبِيًا لقَوْمٍ يَعْلَمُون بَشيراً ونَذيراً فَأَعْرَضَ أكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ (فصلت : ١ – ٤) ، ثم مضى فيها يقرؤهَا ، فلما سَمعها عُتْبَة أنصتَ له ، وألقى يَدَيْه خَلْفَ ظهره مُعتمداً عليهما يَسْتَمعُ منه ، حتى انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السَّجْدة منها فسَجَدَ ، ثم قال له : قد سَمعتَ ما سمعت فأنت وذاك !

فقام عُتْبَةُ إلَى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءَكم أبُو الوليد بغَير الوجه الذى ذهبَ به [7] ، فلما جلسَ قالوا : ما وَراءَك ؟ قال : وَرَائى أنِّي سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ بمثله قطُّ ، ومَا هو بالشِّعْر ولا السِّحر ولا الكَهانة ، يا مَعْشَرَ قُريش أطيعونى ، خَلُّوا بين [8] هذا الرَّجُل وبين ما هو فيه واعتزِلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سَمعتُ نَبَأٌ [9] ، فإن تُصبْه العربُ فقد كُفيتُمُوه بغيركم ، وإن يُظْهِرهُ على العرب به ، فمُلْكُه ملككم ، وكنتم أسعَد الناس به ، قالوا : سحرك بلسانه ! قال : هذا رأْيى فاصْنعوا ما بَدَاَ لكم .

٩ – ومنه ما جاءَ فى حديث أَبى ذَرٍّ فى سبب إِسلامه : رُوى أنه قال : قال لى أخِى أُنَيْس :

---

(١) حمزة هو عم النبى . (٢) السطة فى الحسب : الشرف والمكانة .
(٣) سفهت أحلامهم : [illegible] عقولهم [illegible] (٤) سودناك : جعلناك سيداً .
(٥) ، (٦) التابع : من الجن يلازم المريض فيتبادلان الحديث ، وبك رئيًا : غلب عليك الشيطان وسيطر على تصرفاتك . (٧) جاء بغير الوجه الذى ذهب به : تغير حاله وأصبح مدهوشاً متحيراً .
(٨) خلوا بينه وبين ما هو فيه : اتركوه وشأنه ولا تتعرضوا له بسوء . (٩) نبأ : خبر .

٩ - ومنه ما رواه أبو ذر : قال : قال لى أخى أُنيس : إنه كان له حاجة فانطلق إلى مكة فأبطأ عليه ، فقال له : ما سبب تأخيرك ؟ قال : لقيت رجلاً يقول : إن الله أرسله، ويقول الناس : إنه شاعر ، ساحر ، كاهن .

وكان أنيس شاعراً يدرك الشعر وأقوال الشعراء ، فقال : إن ما يقوله هذا الرجل لا يدخل فى أوزان الشعر ولا بحوره، وليس من طرائقه أو أنواعه .

وليس كاهناً ، فأقواله ليست كأقوال الكهنة ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

* * *

إنّ لى حاجةً إلى مكّةَ ، فانطَلَقَ فراثَ[1] ، فقلت : ما حَبسَك ؟ [2] ، قال : لقيت رجُلاً يقول: إن الله تعالى أرسله ، فقلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعرٌ ، ساحرٌ ، كاهنٌ . قال أبو ذَرّ : وكان أُنَيْسٌ أحد الشُعراء ، قال : والله لقد وضعت قولَهُ على أقْراء [3] الشعر فلم يلتئم[4] على لسان أحدٍ ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

❊ ❊ ❊

١٠ - ومن ذلك ما رُوى أنّ الوليد بن عُقْبَة أتَى النبىَّ ﷺ فقال : اقرأْ ، فقرأ عليه : ﴿ إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْل والإحْسَان وَإيتَاء ذى القُرْبَى وَيَنْهَى عَن الفَحْشَاء وَالْمُنْكر وَالبَغْى يَعظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ (النحل : ٩٠) ، فقال : أَعدْ ، فأعاد ، فقال : والله إنَّ له لَحَلاوةَ ، وإن عليه لَطَلاوةً ، وإن أسْفَله لُمْعِرق [5] ، وإن أعلاهَ لَمُثْمر ، وما يَقُول هذا بَشَرٌ .

❊ ❊ ❊

(الاحتجاج لدلالة هذه الأحوال والأقوال على إعجاز القرآن)

١١ - واعلم أنه لا يجوز أن يقال فى هذا وشبْهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض ، حين خَلَوا بأنفسهم فتفاوَضُوا وتحاوَرُوا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض - وإن كان منه من كلام المؤمنين ، أو ممن قاله ثم آمن ، فإنه لا يصحّ الاحتجاجُ به فى حكمَ الجَدَل ، من حيث يصير كأنَّك تحتجّ على الخَصْم برأْى تراه أنت ، وبقول أنت تقوله ، وذلك أنه إنما يمتنع أن يدُلّ إذا صَدَر القولُ مَصْدَر الدعوى والشىء يَدْفَعه [6] الخصم ويُنْكره ، فأما ما كان مَخْرَجه مَخْرَج التنبيه على أمر يَعرفُه ذوو الخبْرة ، وأطلقهُ قائله إطلاق الوَاثق بأنه مَعلومٌ للجميع ، وأنّه ليس من بصير يعرف مقاديرَ الفَضل والنَّقْص إلا وهو يُحْوَج إلى تسليمه والاعتراف به شاءَ أم أَبَى [7] - فهو دليلٌ بكل حال ، ومن قول كلّ قائل ، وحُجَّة من غير مَثْنَويَّة [8] ، ومن غير أن يُنْظَر إلى قائله أمُوافقٌ أم مخالفٌ، ذاك لأن الدّلالة ليست من نَفْس القول وذات الصفة ، بل فى مَصْدَرهما ، وفى أنْ أُخْرِجَا مُخْرَجَ الإخبارِ عن أمرٍ هو كالشىء البادى للعيون ، لا يُعْمل أحدٌ بَصَرَهُ إلا رآه .

❊ ❊ ❊

---

(١) انطلق فراث : أى أبطأ .
(٢) ما حبسك : ما أخرك عنى .
(٣) أقراء الشعر : أوزانه وبحوره وأغراضه .
(٤) لم يلتئم : لم يجْر .
(٥) معرق : يضرب فى الأعماق ويؤثر فى النفس .
(٦) يدفعه الخصم : يرده .
(٧) أبى : رفض .
(٨) من غير مثنوية : من غير استثناء .

١٠ - ومنه إعجاب الوليد بن المغيرة [١] حين استمع إلى بعضٍ من آى القرآن ، وطلب إعادتها مرة بعد أخرى ، ثم قال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لَطلاوة ، وإن أسفله لمتد إلى الأعماق ، وإن أعلاه لمثمر فى السماء ، وما يقول هذا بشر ؛ إذ لا يقدر على قوله أحد من الناس .

* * *

١١ - وما روى عن الوليد بن المغيرة وأبى ذر والوليد بن عقبة وغيرهم ممن وصفوا القرآن بالحلاوة والطلاوة ، لا يقال: لا يصح الاحتجاج به ؛ لأنك تحتجّ على الخصم برأى تراه أنت ، وبقول تقوله أنت ؛ إذ يمتنع الاحتجاج إذا ادعيت شيئاً والخصم ينكره. أما إذا كان الإعجاب من شخص مجرّب له خبرة ، ويقول قولاً يعلمه الجميع ولا ينكرونه، سواء وافق رغبتهم أم خالفها ، فلا شك أن ذلك يكون حجة على الجميع دون استثناء ؛ لأنه خبر ظاهر للعيان ، ولا يُعمل أحد بصره إلا رآه .

* * *

(١) فى النص : الوليد بن عقبة .

١٢ - وإذا رأينا « الأحوال » و« الأقوال » منهم قد شهدت ، كالذى بَان ، باستسلامهم للعَجْز وعلْمهم بالعظيم من الفضل والبَائن [١] من المزيَّة ، الذى إذا قيسَ إلى ما يستطيعونَه ويَقْدرون عليه فى ضُروب النَّظم وأنواع التصرُّف ، فاتَهُ الفَوْتَ الذى لا يُنَالُ [٢] ، وارتقى إلى حيث لا تطمعُ إليه الآمال ، فقد وَجب القطعُ بأنه مُعجزٌ .

ذلك لأنه ليس إلا أحدُ الأمرين : فإمّا أن يكونوا قد علموا المزيَّةَ التى ذكرنَا أنهم علموها على الصِّحَّة - وإما أن يكونوا قد تَوَهَّموها فى نظم القرآن ، وليست هى فيه لغَلَط دخل عليهم . ودعوى الثَّانى من الأمرين سُخْفٌ [٣] ، فإن ذلك لو ظُنَّ بالواحد منهم لبَعُدَ ، ذلك لأنه لا يُتَصَوَّر أن يَتوهَّم العاقل فى نَظْم كلام ، جُلُّ مُناه [٤] ومُنَى أصحابه أن يستطيعَ معارضتَه ، وأن يقدر على إسكات خَصْمه المُبَاهى [٥] به ، أنَّه قد بلغ فى المَزيَّة هذا المبلغَ العظيمَ غلطاً وسهواً ، فكيفَ بأن يَشمَلَ هذا الغلطَ كُلَّهم ، ويدخل على كافَّتهم ؟ وأىُّ عقل يرضى من صاحبه بأنْ يتوهَّم عليهم مثل هذا من الغلط ، وهم مَنْ إذا ذَاقَ الكَلام عرف قائلَهَ من قبل أن يُذْكَر ، ويسمعُ أحدُهم البيتَ قد استَرْفدَهُ الشاعرُ [٦] فأدخله فى أثْنَاء شعر لَه ، فيعرف موضعه ويُنَبِّهُ عليه ، كما قال الفرزدق لِذى الرُّمَّة:أهذا شعرك ؟ ، هذا شعر لاكَهُ أشَدُّ لَحْيَيْن منك [٧] إلى ضُروب من دقيق المعرفة يقلُّ هذا فى جَنْبها ؟ وإذا لم يصحَّ الغَلَط عليهم ، ولَم يَجُزْ أن يُدَّعَى أنّه كان معهم فى زمانهم من كان بالأمر أعلَمَ ، وبالذى وقع التحدِّى إليه أقومَ ، فقد زالت الشبهة فى كونه معجزاً له .

* * *

١٣ - وإن قالوا : فإنّ ههُنا أمراً آخرَ ، وهو ما عَلمْنا من تقديمهم شعراءَ الجاهليَّة على أنفسهم ، وإقْرَارهم لهم بالفضل ، وإجماعهم فى امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى أنَّهم أشْعَرُ العربِ ، وإذا كان ذلك كذَلك ، فمن أين لنا أن نعلمَ أنَّهم لم يكونوا بحيثُ لو تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن لَقاموا بها واستطاعوها ؟

قيل لهم : هذا الفَصْلُ على ما فيه لا يَقْدَح فى موضع الحُجَّة ، وذلك أنهم كانوا ، كما لا يَخْفَى ، يَرْوُون أشعار الجاهليين وخُطَبَهم ، ويَعْرِفون مقاديرَهُم فى الفصاحة معرفةَ من لا

---

(١) البائن عن المزية : الخارج عن الفضل .
(٢) فاته الفوت : فاته الأمر العظيم .
(٣) سخف : هزيل وباطل .
(٤) جل مناه : معظم أمنياته .
(٥) المباهي به : المفاخر .
(٦) استرفده : طلب رفده وعطاءه .
(٧) لاك الشيء : مضغه ، واللحيان : العظمان اللذان فيهما الأسنان ، والمعنى : قاله من هو أفخم منك شعراً .

١٢ - وإذا رأينا أحوالهم وأقوالهم تشهد بعجزهم ، وأن نظم القرآن يرتقى إلى مكانة لا تبلغها الآمال ، فقد تأكد لهم أن القرآن معجز ، إذ لا يخلو من أحد أمرين :

إما أنهم علموا المزية فى القرآن على الحقيقة ، وإما أنهم توهموا المزية فى نظم القرآن وليست هى فيه على الحقيقة .

والأمر الثانى باطل ؛ إذ لا يتصور أنهم يستطيعون معارضة القرآن ، ويقدرون على إفحام الخصم ، ثم يقولون : إن ما فى القرآن من مزية وفضل يرجع إلى الوهم والخطأ، وإذا صدر هذا القول من أحدهم فكيف يشملهم جميعاً ، وكيف يكون الأمر كذلك وهم أرباب فصاحة يميزون الكلام الحسن من الردىء، ويعرفون القائل إذا تليت عليهم قصيدة شعر دون أن يذكر اسم القائل ، ويعرفون الغرض من القصيدة إذا كان فيها بيت من الشعر يطلب فيه الشاعر المنح والعطاء ، وذلك لشدة تمرسهم بقرض الشعر ، فكيف يصح الغلط أو التوهم منهم ؟ وإذن فقد زالت الشبهة واتضح إعجاز القرآن لهم .

* * *

١٣ - وثمة اعتراض آخر : فقد علمنا أنهم يجلّون شعراء الجاهلية ، ويضعونهم موضع القمة فى الشعر ، وخاصة أصحاب المعلقات كامرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى من الذين كتبت قصائدهم بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة . فمن أين لنا أن نعرف إذا تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها وأمكنهم الإتيان بمثل نظمه ؟

قيل لهم : هذه حجة لنا وليست حجة لكم ، فأنتم تروون الشعر وتعرفون قدر الشاعر، فلو وجدتم فى الشعر مزية تفضل القرآن ، أو توازيه ، أو تكون قريبة منه لذكرتم ذلك،

تُشْكِلُ[1] جهات الفَضْلِ عليه ، فلو كانوا يرون فيما رووا وحفظوا مزيَّةً على القرآن أو رأوه قريباً منه ، أَو بحيثُ يجوز أَن يُعارَض بمثله ، أَو يَقَعَ لهم إذا قاسوا أو وازنوا أَنَّ هذا الذى تُحُدُّوا إلى معارضته لو تُحُدِّيَ إليه مَنْ قبلهم لاستطاعوا أَنْ يأْتوا بمثله ، لكانوا يَدَّعون ذلك ويذكُرونه ، ولو ذكروه لذُكِرَ عنهم ، ومُحَالٌ - إذَا رَجَعنا إلى أنفسنا واستشْفَفْنا[2] حالَ الناس فيما جُبِلوا عليه[3] - أَن يكونوا قد عرَفُوا لما تُحُدُّوا إليه وقُرِّعوا[4] بالعجز عنه شَبْهاً ونَظْماً ، ثم يُتْلَى عليهم : ﴿ قُلْ لَئن اجْتَمَعَت الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بمثْلِ هَذَا القُرْآنَ لا يَأْتُونَ بمثْله وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[5] (الإسراء : ٨٨) ، فلا يزيدون فى جوابه على الصَّمَت ، ولا يقولون : « لقدْ روينا لمن تَقَدَّم ما علمتَ وعلمنَا أنه لا يَقْصُرُ[6] عما أتيتَ به ، فمن أَين استجَزْتَ أَن تدَّعِيَ هذه الدَّعْوَى » ؟ .

فإذا كان من المعلوم ضرورةً أَنَّهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأَوا أَن يَقُولوه ، ولو على سبيل الدَّفْع والتلبيس والتَّشَغُّب بالباطل[7] ، بل كانوا بين أَمرين : إمَّا أَن يُخْبِروا عن أَنفسهم بالعجز والقُصور ، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض ، وكان الحالُ حالَ تَصَادُق[8] - وإمَّا أَن يَتَعَلَّقوا بما لا يتعلَّق به إلا من أعوزته[9] الحيلَة ، ومَن فُلَّ[10] بالحجَّة ، من نسبته إلى السحر تارةً ، وإلى أنه مأخوذٌ من فُلان وفُلان أُخْرَى ، يُسَمُّون أَقواماً مَجْهولين لا يُعْرَفون بعلْمٍ ، ولا يُظَنُّ بهم أَن عندهم علماً ليس عندَ غيرهم - ثَبَت أَنهم قد كانوا عَلموا أَنَّ صُورَةَ أُولَئك الأَوائل صُورتُهم ، وأَنَّ التقديرَ فيهم أَنهم لو كانوا فى زَمَانِ النبى ﷺ ، ثُمَّ تُحُدُّوا إلى معارضته ، لكانوا فى مثل حال هؤلاء الكائنين فى زمانه حالُهُمْ ، وإذا كان هذا هكذا ، فقد انتفى الشَّكُّ ، وحصل اليقينُ الذى تسكُنُ معه النفس ، ويطمئنُّ عنده القلب ، أَنه مُعْجز ناقضٌ للعـادة، وأَنَّه فى معنى قَلْب العـصَا حيةً، وإحيـاء الموتى، فى ظهور الحـُجَّة به على الخَلْق كافَّةً، وبَانَ أَنْ قد سُعد المؤمنون وخَسر المبَطلونَ. وَالحَمْدُ لله ربِّ العالمين على أَنْ هدانا لدينه، وأَنا قلوبنا ببُرْهَانه ودليله، وإِيَاه جَلَّ وعـزَّ نسأَل التَّثْبِيت على ما هَدَى له، وإِتمامَ النِّعمة بإِدامة ما خَوَّله[11] بفضْله ومَنِّه.

* * *

---

(١) لا يشكل : لا يغيب ولا يختلط بغيره . (٢) استشففنا حال الناس : تأملنا أحوالهم .
(٣) جبلوا عليه : اعتادوا عليه وأنسوا به . (٤) قرّعوا : وبخوا .
(٥) ظهيراً : معيناً . (٦) لا يقصر : لا يقل .
(٧) الدفع : الرد ، التلبيس : التخليط ، والتشاغب : تصنع الشغب .
(٨) تصادق : تصاف . (٩) أعوزته الحيلة : افتقدها .
(١٠) فلّ بالحجة : هزم وانكسر . (١١) إدامة ما خوّله : أن يدوم ما منحه بفضله وعطائه .

ولو ذكرتموه لذُكر عنكم ، ولما قرّعكم أحد بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن شبهاً أو نظماً ، وإذا كان شعر الفحول مثل القرآن الذى تدعيه ، لما جاز لنا أن نلوذ بالصمت ، ونسلم بإعجاز القرآن .

ومعلوم أنهم لم يقولوا : إن أشعارهم وأشعار الأقدمين منهم لها مزية مثل مزية القرآن .

وقد ثبت أنهم لم يقولوا ذلك ، وإنما كانوا بين أمرين :

إما أن يسلموا بالعجز والقصور ، وألا قِبل لهم بالإتيان بمثل القرآن فصاحة ونظماً حين يخلوا بعضهم إلى بعض .

وإما أن ينسبوه إلى السحر تارة ، وأنه من أساطير الأولين تارة أخرى إذا أعوزتهم الحيل وانقطعت الحجة .

وثبت لديهم أن صورة البلغاء من الأوائل لا تختلف عن صورتهم، وأنهم لو كانوا فى زمن النبى ﷺ وتحداهم بالقرآن لكان حال الأولين مثل أحوالهم فى زمن الرسول ﷺ .

وإذا كان الأمر كذلك فقد انتفى كل شك بأن القرآن غير معجز وغير ناقض للعادة، وهو معجزة مثل قلب العصا حية، وإحياء الموتى فى ظهور حجته على الخلق جميعاً .

* * *

فَصْلٌ (فى شبهة)

١٤ – واعلم أنَّ ههُنا باباً من التلبيس [1] أنتَ تَجدُه يدورُ فى أنْفُسِ قوم من الأشقياء ، وتراهم يُومئون إليه ، ويَهْمِسون به ، ويَسْتَهْوُون الغرَّ [2] الغَبىَّ بذكره ، وهو قولهم :

« قد جرت العادة بأن يَبْقَى فى الزَّمان من يفوتُ [3] أهلَه حتى يُسَلِّموا له ، وحتى لا يَطْمعَ أحد فى مُدَاناته [4] ، وحتَّى لَيَقع الإجماع منهم أنّه الفَرْدُ الذى لا يُنَازَع [5] ، ثم يذكرون امرأَ القيس والشعراءَ الذين قُدِّموا على من كان معهم فى أعصارهم [6] ، وربما ذكروا الجَاحظَ وكلَّ مَذْكور بأنه كان أفضلَ من كان فى عصره ، ولهم فى هذا الباب خَبْطٌ وتخليطٌ لا إلى غاية ، وهى نَفْثَةٌ [7] نَفَثها الشيطانُ فيهم ، وإنَّما أُتُوا من سوء تَدبُّرهم لما يسمعون ، وتسرُّعهم إلى الاعتراض قبل تَمَام العلم بالدليل ، وذلك أنَّ الشرْط فى المزيَّة الناقضة للعادة ، أن يبلُغَ الأمرُ فيها إلى حَيْثُ يَبْهَر ويَقْهَرُ ، حتى تنقطع الأطماعُ عن المعارضة ، وتَخْرَس الألْسُنُ عن دَعْوَى المدانَاة ، وحتى لا تُحَدِّثَ نفسٌ صاحبَهَا بأن يتصدَّى ، ولا يَجُولَ فى خَلَدٍ [8] أنَّ الإتيانَ بمثله يُمكِن ، وحتى يكون يَأْسُهُمْ منه وإحساسُهُم بالعجز عنه فى بعضه ، مثلَ ذلك فى كُلِّه .

* * *

١٥ – وليت شِعرى [9] ، مَنْ هذا الذى سَلَّم لهم أنَّه كان فى وقت من الأوقات من بَلَغ أمره فى المزيَّة وفى العُلُوِّ على أهل زمانه هذا المَبْلَغ ، وانتهى إلى هذا الحدِّ ؟ إن قيل : « امرُؤُ القَيْس » ، فقد كان فى وقته من يُباريه ويُمَاتنُه [10] ، بل لا يَتحَاشَى من أن يَدَّعىَ الفَضْلَ عليه فقد عرفنا حديث « عَلْقَمة الفَحْل » ، وأنه لما قال امرؤ القيس ، وقد تناشدا : « أيُّنَا أشعر ؟ » قال : « أنا » غيرَ مُكْتَرث ولا مُبال ، حتى قال امرؤ القيس : « فقُلْ وَانْعَتْ فَرَسَكَ وناقتَك ، وأقول وأَنْعَتُ فرسى وناقتى » ، فقال علقمة : « إنى فاعل ، والحَكَمُ بَيْنى وبَينك المرأةُ من ورائك » ، يعنى أمَّ جُنْدُب امرأة امرئ القيس ، فقال امرؤ القيس :

---

(١) باباً من التلبيس : من الخلط .
(٢) الغرّ : الساذج الجاهل .
(٣) يفوت الناس : يسبقهم .
(٤) مداناته : القرب منه .
(٥) لا ينازع : لا يقاوم .
(٦) أعصارهم : عصورهم .
(٧) نفثة : نفخة ، هبّة .
(٨) لا يجول فى خلد : لا يخطر بذهن .
(٩) ليت شعرى : ليت علمى .
(١٠) يماتنه : يصلب أمامه ويشتد معه .

فَصْلٌ

١٤ - وهناك أمر آخر يحاولون الخلط فيه ، يستهوون به الجاهل الغافل وهو قولهم :

إن كل عصر فيه أفذاذ سبقوا الناس ولم يدانيهم أحد ، مثل امرئ القيس شاعر الجاهلية ، والجاحظ أمير البيان ، وأسرعوا يعترضون بهذه الدعوى ، وهى دعوى فاسدة ؛ لأن من شرط الأمر الذى يخالف العادة أن تنقطع الأطماع دون معارضته ، ولا يمكن لأحد أن يتصدى له أو يأتى بمثله ، فيكون الإحساس بالعجز ، واليأس من القرب منه شامل لجميعه كما هو شامل لبعضه .

* * *

١٥ - ثم إن هذه قضية لا نسلم بها ، فقد كان فى زمن امرئ القيس من يباريه ويتغلب عليه ، ويدعى الفضل دونه ، وحديثه مع علقمة الفحل الشاعر مدوّن فى كتب الأدب ، فقد تباريا فى الإنشاد ، ووصف كل منهما فرسه وناقته ، واحتكما لامرأة تسمى أم جندب ، امرأة امرئ القيس ، ففضلت علقمة على زوجها امرئ القيس .

* * *

خَـليلَىَّ مُرَّا بى عَلَى أُمِّ جُنـــدَبِ نُقَـضِّ لُبانَاتِ الفُـــؤَادِ المُعَذَّبِ (١)

وقال علْقمة :

ذَهَبْتَ منَ الهجْرَانِ فى كُلِّ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَـــقا كُلُّ هَذَا التَّجَنـــُّبِ

وتحاكما إلى المرأة ، ففَضَّلت علقمة (٢) .

* * *

١٦ - وجَرَى بين امرئ القيس والحارث اليَشْكُرِىّ فى تَتْميمه أنصافَ الأبيات التى أوّلها :

أَحَـــارِ أُرِيكَ بَرْقاً هَـــبَّ وهناً كَنارِ مَجُوس تَسْتَعِرُ استعَارَا (٣)

ما هو مشهور ، حتى قال امرؤ القيس : لا أُمانتك بعد هذا (٤) .

* * *

(الأخبار الدالة على اختلاف الناس فى أى الشعراء أشعر)

١٧ - ثم وجدنَا الأخبار تدلُّ على خلاف لم يَزَلْ بين الناس فيه وفى غيره ، أىٌّ أشعر ؟ وعلى أىٍّ لم يَسْتَقِرَّ الأمرُ فى تقديمه قَراراً يرفَعُ الشَّكَّ . رووا أن أمير المؤمنين عليا ، رضوان الله عليه ، كان يُفَطِّر الناس فى شهر رمضانَ ، فإذا فَرَغ من العَشَاء تكلّم فأَقلَّ ، وأوجزَ فأَبلغَ. قال : فاختصم الناسُ ليلةً فى أشعر الناس ، حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال رضوان الله عليه لأبى الأسود الدؤلى(٥) : قل يَا أَبا الأسود ، وكان يتعصَّب لأبى دُؤَاد ، فقال : أشعرهم الذى يقول :

ولَقَـدْ أَغْتَدى يُدَافِعُ رُكْنى أَحْـــوَذِىٌّ ذُو مَيْعَة إضـريجُ

مخْـــلَطٌ مـزْيَلٌ مكَـرٌّ مفَـرٌّ منفحٌ مطرَحٌ سَـبُوحٌ خَرُوجُ

سَـلْهَبٌ شَرْجَبٌ كأنَّ رِمَاحاً حَمَلَتْهُ، وَفى السَّرَاة دُمُوجُ (٦)

---

(١) لبانات الفؤاد : أهواء النفس . (٢) تحاكما إلى المرأة : جعلاها حكماً وقاضياً .

(٣) تستعر : تتّقد . (٤) لا أمانتك بعد هذا : لا أعارضك .

(٥) هو أبو الأسود الدؤلى البصرى ، أول من أسس علم النحو ، ونقط المصحف ، توفى سنة ٦٩هـ بطاعون الجارف فى خلافة ابن الزبير .

(٦) الأحوذى : السريع الجرى ، ذو ميعة : ذو نشاط ، إضريج : يتفصد عرقاً ، وهى صفة مدح، مزيل : خفيف الحركة ، منفح : جسور ، مطرح : بعيد الخطو سبوح و يمد يديه فى الجرى ، خروج : طويل العنق ، سلهب : طويل ، شرجب : طويل القوائم ، وفى السراة دموج : فى الظهر إحكام .

١٦ - وجرى بين امرئ القيس والحارث اليشكرى أمر مثل هذا ، حتى قال امرؤ القيس : لا أباريك ولا أعارضك بعد هذا .

* * *

١٧ - وما زال الخلاف واقعاً بين الناس ، فلم يجمعوا على سبق واحد من الشعراء على غيره .

تروى الأخبار : أن عليًّا بن أبى طالب رضى الله عنه اختصم الناس فى مجلسه : أىٌّ أشعر الشعراء ، حتى ارتفعت أصواتهم ، وكان علىّ يفضل أبا دؤاد ولكنه قال : كل شعرائكم محسن ، وإن يكن أحدهم أفضل من غيره ، فالذى لم يقل رغبة ولا رهبة : امرؤ القيس فقد كان أصحهم قولاً ، وأجودهم طُرفة .

* * *

فأقبل أمير المؤمنين – رضوان الله عليه – على الناس فقال : كل شعرائكم مُحْسنٌ ، ولو جَمَعهم زمانٌ واحدٌ وغايةٌ ومذهبٌ واحد فى القول ، لَعلمْنا أيُّهم أَسْبَقُ إلى ذلك ، وكلُّهم قد أصاب الذى أراد وأحسن فيه ، وإن يكن أحدهُم أفضلَ ، فالذى لم يَقُلْ رَغْبةً ولا رَهْبةً : امْرُؤُ القَيْس بن حجر ، كان أَصَحَّهم بَادرَة ، وأجودهم نادرة [1] .

* * *

١٨ – وعن ابن عباس أنه سأل الحُطَيئة : مَنْ أشعر النَّاس ؟ قال : أمِنَ الماضين أم من الباقين؟ فقال : إذَنْ من الماضين ، فهو الذى يقول :

ومَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُون عِرْضِه ... يَفِـرْهُ [2] ، ومَنْ لا يَتّقِ الشَّتْمَ يُشْتَـمِ

ومَا الذى يقول :

ولَسْـتَ بِمُسْـتَبْقٍ أخـاً لا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ [3] ، أَىُّ الرِّجَال المُهَذَّبُ

– بدون ذلك ، ولكنَّ الضراعةَ [4] أفسدته كما أَفْسَدَتْ جَرْولاً – يعنى نفسه – واللهِ يا ابن عباس لولا الجَشَع والطَّمع لكنتُ أشعرَ الماضين ، فأما الباقون فلا أشك أنِّى أَشْعَرُهم .

* * *

١٩ – وقالوا : كان الأوائل لا يفضِّلون على زُهَيْر أحداً فى الشعر ويقولون : « قد ظلمه حقَّه من جعله كالنابغة » ، قالوا : « وعامة أهل الحجاز على ذلك » . وعن ابن عباس أنه قال: سامرتُ [5] عمرَ بن الخطاب – رضوان الله عليه – ذات ليلة ، فقال : أَنْشدْنى لشَاعر الشُّعراء، فقلت : ومَنْ شاعر الشُّعراء ؟ قال : زُهَيْر ، قلت : يا أمير المؤمنين ، ولمَ كان شاعرَ الشُّعراء؟ قال : لأنه لايتَتَبَّع وَحْشىّ [6] الكلام فى شعره ، ولا يُعاظِل [7] بين القولَ .

* * *

٢٠ – ورُوِىَ عن أبى عبيدة أنه قال : أشعرُ الناس ثلاثةٌ : امرؤ القيس بن حجر ، وزهير بن أبى سُلْمَى ، والنابغة الذبيانى ، ثم اختلفُوا فيهم : فزوَّرَت اليمانية تقديماً لصاحبهم أخباراً رَفَعُوها إلى رسول الله ﷺ . ورُوِى عن يحيى بن سُلَيْمان الكاتب أنه قال : بَعَثنى المنصور إلى

(١) أصحّهم بادرة : أبعدهم عن الخطأ ، وأجودهم نادرة : أحسنهم طُرفة .

(٢) يفره : يحفظه من العيب . (٣) لا تلمه على شعث : تقبله على عيبه .

(٤) الضراعة : الخنوع . (٥) سامرته : حادثته ليلاً .

(٦) وحشىّ الكلام : غريبه .

(٧) يعاظل : تركيب الكلام بعضه على بعض مما يؤدى إلى صعوبة فهمه .

١٨ – وسأل العباس رضى الله عنه الحطيئة الشاعر : من أشعر الناس ؟

قال : زهير ، ومثله النابغة لولا أنه يتضرع ويتذلل ، مما أفسده كما أفسدنى ، ولولا الطمع لكنت أشعر الماضين ، أما المحدثون فأنا أشعرهم لا شك فى ذلك .

* * *

١٩ – وكان الأوائل منذ فجر الإسلام لا يفضلون أحداً على زهير ، وأهل الحجاز يرونه أفضل من غيره من الشعراء ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعدّه شاعر الشعراء ؛ لأنه لا يتتبع غريب الكلام، ولا يدخل الألفاظ بعضها فى بعض فيسلم شعره إلى التعقيد.

* * *

٢٠ – ويروى عن أبى عبيدة – من أشهر اللغويين وصاحب مجاز القرآن – أن أشعر الشعراء ثلاثة : امرؤ القيس ، وزهير ابن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى .

وروى أيضاً عن حماد الراوية حين سأله الخليفة المنصور عن أشعر الناس ، قال : الأعشى صنّاجة العرب .

فلم يتفقوا على من أشعر الناس ، وإنما اختلفوا فى ذلك اختلافاً بيّناً .

* * *

حمّاد الراوية أسأله عن أشعر الناس ، فأتيتُه وقلت : إن أمير المؤمنين يسألك عن أشعر الناسٌ، فقال : ذاك الأعْشى صنَّاجُها [1] .

* * *

٢١ - فقد علمنَا أن امرأ القيس كان أشْعَرهم عندهم ، وأن تفضيلهم غيره عليه إنّما كان على سَبِيل المبالغة ، وعلى جهة الاستحسان للشَّىْء يُتَمَثَّل به في الوقت ويَقَعُ فى النفس ، وما أَشبهَ ذلك من الأَسباب التى يُعْطَى بها الشاعر أكثر مما يستحقُّ ، أليس فيه أنَّه مما لا يَبْعُدُ فى القياس ، وأنَّه مما يتَّسع له الاحتمال ، وأنه ليس بالقول الذى يُعَاب ، والحكم الذى يُزْرى [2] بصاحبه ، وأن فضله عليهم لم يكن بالفضل الذى يمنع أن يكونوا أكفاءً [3] له ونظراءَ يَسُوغ للواحد منهم ، ويُسَوِّغُ هو لنفسه ، دَعْوى مساواته والتَّصَدِّى لمباراته ؟

هذا ، وفى حاجة المنصور إلى أن يَسأَل عن أشعر الشعراء ، وقَدْ مضى الدَّهْرُ بعد الدَّهْر ، دليلٌ على أن لم يكن الذى رُوي من تَفْضيله قولاً مُجْمَعاً عليه من أصله وفى أوّل ما قيلَ ، وأنه كان كالرأْى يراه قومٌ وينكره آخرون ، وأن الصُّورةَ كانت كالصورة مع جرير والفرزدق، وأبى تَمَّام والبحتريّ . ذاك لأنه لو كان القولُ بأنه أشعرُ الناس قولاً صَدَرَ مَصْدَرَ الإجماع فى أوّله ، وحكماً أطبقَ [4] عليه الكافَّة حين حُكِمَ به ، حتى لم يُوجَدْ مخالف ، ثم استمرَّ كذلك إلى زمان المنصور ، لكان يكون مُحالاً أن يَخْفَى عليه حتى يَحتاجَ فيه إلى سؤال حَمَّاد - وكان يكون كذلك بعيداً من حَمَّاد أن يبعثَ إليه مثلُ المنصور ، فى هَيْبَته وسلطانه ودقَّة نظره وشدّة مُؤاخذته ، يسألُه فيجازفُ له فى الجواب ، ويقول قولاً لم يَقُلْهُ أحد ، ثم يُطْلِقه إطلاقَ الشىء الموثُوق بصحَّته ، المتقدِّم فى شهرته ، فتدبّر ذلك .

* * *

(بيان فى تقديم الشعراء وتفضيلهم من أى وجه يكون)

٢٢ - ويزيد الأمر بياناً أنّا رأيناهم حين طبَّقوا [5] الشعراءَ جعلوا امرأَ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة ، فأعلموا بذلك أنَّهم أكفاءٌ ونُظَراء ، وأنّ فضلاً إن كان لواحد منهم ، فليس بالذى يُوئِسُ الباقين من مُدَانَاته [6] ، ومن أن يستطيعوا التعلُّقَ به والجَرْىَ فىَ

---

(١) صنّاجة العرب : لما فى شعره من طرب وموسيقى .

(٢) يزرى بصاحبه : يدنى بمنزلته .

(٣) كفء : مماثل ونظير .

(٤) أطبق عليه الكافة : أجمعوا عليه جميعاً .

(٥) طبقوا الشعراء : جعلوهم طبقات .

(٦) يوئس الباقين من مداناته ، ييأسون من القرب منه وملاحقته .

٢١ - فإذا كان امرؤ القيس أشعر الشعراء ، وكان غيره أفضل منه على سبيل الاستحسان والمبالغة مما لا يعيب امرأ القيس ، وإذا كان بعضهم يفضل امرأ القيس ، فلا يمنع أن يكون له أكفاء ونظراء يسوغ لهم دعوى مساواته ، والتصدى لمباراته .

وقد مضت الأزمان ولم يكن أحد من الشعراء مجمعاً على تفضيله ، وإنما هو رأى يراه قوم وينكره آخرون ، كما كان الخلاف حول جرير والفرزدق ، وأبى تمام والبحترى. ولو كان ثمة إجماع على شاعر بأنه أفضل الشعراء ، واستمر ذلك إلى زمن المنصور لما كانت به حاجة إلى السؤال عن أشعر الشعراء ، وأن يجازف حماد الراوية بالجواب بأنه الأعشى، فيقول قولاً لم يقل به أحد .

* * *

٢٢ - ويزيد الأمر وضوحاً وبياناً أنهم حين جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى فى طبقة واحدة ، أنهم كانوا أكفاء متماثلين ، وإذا كان لأحدهم فضل على الآخرين ، لما دعاهم ذلك إلى اليأس من القرب منه والتعلق به حتى يبذّوه أو يساووه أو يدنوا منه .

* * *

مَيْدانه ، ويمنعهم أن يدَّعوا لأنفسهم أو يُدَّعَى لهم أنهم سَاوَوْهُ فى كثير مما قالوه أو دَنَوْا منه ، وأنهم جَرَوْا إلى غايَتِه أو كادوا ، وإذا كان هذا صُورة الأمر ، كان من العَمَى التعلُّقُ به ، ومن الخَسَار الوُقوعُ فى الشُّبْهَة بسببه .

* * *

٢٣ - وطريقةٌ أُخرى فى ذلك ، وتقريرٌ له على ترتيب آخر ، وهو أن الفضلَ يَجبُ والتقديمَ ؛ إمَّا لمعنى غريب يَسْبِق إليه الشاعر فيستخرجه ، أو استعارة بعيدة يَفْطُنُ لها ، أو لطريقة فى النظم يخترعها ، ومعلوم أن المُعَوَّل [١] فى دليل الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أن ليس الدليلُ فى المجيء بنَظْم لم يوجد من قبل فَقَطْ ، بل فى ذلك مضموماً إلى أن يَبِينَ [٢] ذلك « النظم » من سائر ما عُرِف ويُعْرَف من ضروب « النظم » ، وما يَعْرِفُ أهلُ العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه ، البَيْنُونَة [٣] التى لا يَعْرِض معها شكٌّ لواحد منهم أنه لا يستطيعه ، ولا يهتدى لكُنْه [٤] أمْره ، حتى يكونوا فى استشعار اليأْس من أن يقدروا على مثله ، وما يَجْرى مَجْرَى المِثْل له ، على صُورة واحدة ، وحتّى كأن قلوبَهم فى ذلك قد أُفرِغَت فى قَالَبٍ واحد [٥] . وإذا كان الأمر كذلك لم يَصِحَّ لهم تعلُّقٌ بشأن امرئ القيس حتى يدَّعوا أنه سبَق إلى نَظْمٍ بانَ من كُلِّ نَظْمٍ عُرِف لمن قبله ولمن كان معه فى زمانه ، البَيْنُونَة التى ذكرنا أمرها .

وهم إذا فعلوا ذلك ، ورّطوا أنفسهم فى أعظم ما يكون من الجَهالة ، من حيث إنه يُفْضِى [٦] بهم إلى أن يدَّعوا على من كان فى زمان النبيِّ ﷺ من الشعراء والبلغاء قاطبةً الجهل بمقادير البلاغة ، والنُّقْصانَ فى علمها ، ولأنفسهم الزيادةَ عليهم ، وأن يكونوا قد استدركُوا فى نظم امرئ القيس مزيَّةً لم تعلمها قريشٌ والعربُ قاطبةً ، ذلك لما مَضَى آنفاً [٧] من أنَّ مُحَالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نَظْمٌ يعرفون من حاله أنه مُسَاوٍ فى الشرف نَظْمَ القرآن ، ثم لا يَذْكُرونه ولا يحتجُّون به على النبى ﷺ ، وهو يُخْبِرهم أن الذى أتَى به خارج عن طَوْق [٨] البشر ويَتَجاوزُ قُوَاهُمْ .

هذا ، ومَنْ يُسَلِّم بأنَّ امرأ القيس زاد فى البلاغة وشَرَف النَّظْم [٩] على نَظْمِ من كان قبله ،

---

(١) المعول : المرجع والأصل .
(٢) يبين : يتميز .
(٣) بينونة نظم القرآن : فضله وتميزه عن نظمهم .
(٤) لا يهتدى لكنه أمره : حقيقة شأنه .
(٥) أفرغت فى قالب واحد : صار رأيهم واحداً لا اختلاف بينهم .
(٦) يفضى بهم : يذهب بهم .
(٧) مضى آنفاً : سابقاً .
(٨) طوق البشر : قدرتهم .
(٩) النظم : ترتيب الكلام بعضه مع بعض بطريقة مخصوصة .

٢٣ – وطريقة أخرى لبيان أن القرآن معجز ، وأنهم لم يقدروا على معارضته .

فإثبات الفضل يكون إما لاختيار معنى غريب أو استعارة بعيدة ، أو نظم دقيق ، وإن كان معلوماً أن سبب الإعجاز هو النظم ، وليس المراد الإتيان بنظم لم يوجد من قبل ، بل أن يتميز النظم عن سائر ما عرف عند أهل العصر ، ولا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا النظم .

وإذا كان الأمر كذلك فليس لهم فى تقديم امرئ القيس شأن حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم تميز عن نظم غيره ممن سبقه أو عاصره .

وإذا فعلوا ذلك فقد ورّطوا أنفسهم وحكموا عليها بالجهالة ، فكيف يكون بين أيديهم شعر منظوم مساوٍ فى شرفه لنظم القرآن ، ثم لا يحتجّون به على النبى ﷺ الذى أتى بقرآن خارج عن طوق البشر فى نظمه وتجاوز قدرتهم .

ومن يسلم بأن شعر امرئ القيس زاد فى شرف نظمه على نظم من كان قبله ، كما زاد القرآن فى فضل نظمه على نظم من كان فى عصر النبى ﷺ .

من أين هذه الدعوى وما مصدرها ؟ أفى شعره ما يميزه عمن سبقه كأبى دؤاد والأفوه الأودى وغيرهما ؟ وإذا كان خبر أتاهم فليرونا مكانه وموضعه ؛ بل الخبر جاء بما يكذبهم ، حين سأل أميرُ المؤمنين عليٌّ أبا الأسود بحضرة العرب بعد أن ارتفعت أصواتهم ومشاجراتهم فى بيان مَن أشعر الناس ، فيقدم أبا دؤاد على غيره من الشعراء ، ثم لا يسمع نكيراً من أحد ، وهم أدرى الناس بمضايق الشعر ونظمه .

وإذا كانت شبهتهم فى القرآن هى شبهة فى أصل الدين ، كان ذلك كالداء الذى يخشى منه على روح الإنسان ، ومن ثم لا يجوز التهاون فى أمرها وإن قلّت ، كالأفعى تضرب على رأسها ما دام فيها حس أو حركة .

❊ ❊ ❊

ما إذا اعتُبرَ كان فى مزيَّة قَدْر القرآن على نَظْم مَنْ كان فى عصر النبى ﷺ ؟ أَمْ منْ أين لهم هذه الدعوى ؟ ألشىء علموه هم فى شعره ، بَانَ لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأبى دُؤَاد والأفوه الأودىّ وغيرهما ؟ أم لخَبَر أتَاهم ؟ فَلْيُرونَا مكانه ، وليس لهم إلى ذلك سبيل[1] ، بَلْ قد أتى الخبرُ بما يُجَهِّلهم فى هذه الدعوى ويُكَذِّبهم ، وهو الذى تقدّم من قول أبى الأسود وتفضيله أبا دُؤَاد بحضرة أمير المؤمنين علىّ رضوان الله عليه ، وبعد أن قال له : «قل يا أبا الأسود» ، أفيكونُ أن يكونُوا قد عرَفوا لامرئ القيس المزيَّةَ التى ذكروها ، وكان فَضْلُه على من تقدَّمه الفضلَ الذى قالوه ، ثم يقول أمير المؤمنين لأبى الأسود : « قل » بحَضْرة العرب وبعَقب أن تشاجروا فى أشعر الناس فيؤخِّره ويقدِّم أَبَا دؤاد ، ثم لا يَسْمَعُ نكيراً [2] ، كالذى يَجب فيمن قال الشىءَ الظاهرَ بُطْلانُه ، وذَهب مَذْهَباً لا مَسَاغ [3] له ! وليست تُذْكَرُ أمثالُ هذه الزيادة ، ويُتَكلَّف الجوابُ عنها ، أَنَّها تأخُذ موضعاً من قَلْب ذى لُبٍّ[4] ، ولكن الاحتياط بذكْر ما يُتَوَهَّم أن يَسْتروِحَ إليه الغَوِىُّ[5] ، ويُغَالَطَ به الجاهل .

وإذا كانت الشُّبْهَة فى أَصْلِ الدين ، كانت كالداء الذى يُخْشَى منه على الرُّوح ، ويُخَاف منه على النَّفس ، فلا يُسْتَقَلُّ قليلُه ، ولا يُتَهاون باليَسير منه ، ولا يُتَوَهَّمُ مكانُ حَرَكة له إلا استُقْصىَ النَّظَرُ فيه[6] ، وأُعيد الكَىُّ [7] على نواحيه ، وكالحيوان ذى السَّمِّ يُعاد الحَجَرُ على رأْسه ، ما دام يُرَى به حسٌّ وإن قَلَّ .

والله وَلِىُّ العصمة ، والمسئولُ أن يَجْعل كلَّ ما نعيد ونبدئ فيه لوَجْهه ، بفَضْله ومَنّه .

❊ ❊ ❊

(الشرط فى المعجزة أن تَعُمَّ الأزمان كلها)

٢٤ – فاعلم أنهم إذَا ذَكَروا – فى تعلُّقهم بالتَّوابع ، ومحاولتهم أن يَمْنَعوا من الاستدلال، مع تَسْليم عَجْز العرب عن معارضة القرآن – مَنْ تَرَاخَى [8] زمانُه عن زَمان النبى ﷺ ، كالجاحظ وأشباهه ، كانوا فى ذلك أَجهلَ ، وكان النَّقْضُ عليهم أسهلَ ، وذلك أن الشَّرْط فى نَقْضِ العادة أن يَعُمَّ الأزمانَ كلَّها ، وأن يَظهر على مُدَّعى النبوة ما لم يستطعه مَمْلوكٌ قَطُّ .

---

(١) سبيل : وجْهة وطريق . (٢) نكيراً : دهشة وإنكاراً .
(٣) لا مساغ له : لا يجوز له . (٤) ذى لب : ذى عقل .
(٥) يستروح إليه الغوى : يرضى عنه المعن فى الضلال .
(٦) استقصى النظر فيه : نظر إليه من كل ناحية . (٧) الكىّ : علاج ودواء لكل علة .
(٨) تراخى زمانه عن زمان النبى : أى جاء بعده بفترة طويلة .

٢٤ - وإذا تعلق زعمهم بمن جاء بعد زمان الرسول ﷺ كالجاحظ وأضرابه ، كانوا فى ذلك أجهل ، ونقض زعمهم أسهل ؛ لأن شرط نقض العادة أن تعمّ الأزمان كلها ، وأن يظهر على يد المدعى ما لم يستطع أحد أن يظهره على يديه هو.

وإذا تقدم واحد كالجاحظ على أهل عصره ، فلا فضل فى ذلك إذا أمعنت النظر ؛ إذ ليس الأمر بأكثر من أن واحداً زاد فى جماعة معدودة ، فكان أشعرهم أو أحذقهم فى صنعة ، وليس ذلك من الإعجاز فى شىء ؛ إذ إن الإعجاز هو ما يفوق قدرة البشر

أما الجاحظ وغيره فقد شربوا من ماء غيرهم من السابقين ، واستقوا معلوماتهم من الأولين ، وبلغوا ما بلغوا من حفظ كلام الأولين ، ولولا ذلك لكانوا فى عداد العامة ، فحاله كحال النحل تغتذى بطيب الأزهار ، ثم تقذفها عسلاً جنيا حلو المذاق .

* * *

وأمَّا تَقَدُّمُ واحد من أهل العصر سائرَهم ، ففى معنى تقدُّم واحد من أهل مصر من الأمصار غَيْرَهُمَّن يَضُمُّه وإياه ذلك المصْرُ ، لا فضلَ فى ذلك بين الأمصار والأعصار [1] إذا حَقَّقْتَ [2] النَّظَر ، إذ ليس بأكثر من أنّ واحداً زاد على جماعة معدودين فى نوع من الأنواع، فكان أعلَمَهم أَوْ أَكتبَهم أَوْ أَشعَرَهُم ، أو أَحْذَقَهم فى صَنعة ، وأَبْهَرهم فى عَمَل من الأعمال. وليس ذلك من الإعجاز فى شىء ، إنما المُعْجزُ ما عُلمَ أنه فوق قُوَى البشر وقُدَرهم، إن كان من جنْس ما يَقَعَ التفاضُل فيه من جهة القُدَر [3]، أَو فوق علُومهم ، إن كان من قَبيل ما يَتَفاضَلُ النَاسُ فيه بالعلْم والفَهْم ، وإذَا كُنَّا نعلم أن استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبُلَغَاء الَذين تقدَّموا فى الأزمنة ، وأنهم فَجَّروا لهم ينابيعَ القولَ فاسْتَقَوْا ، ومَثَّلوا لهم مُثُلاً فى البلاغة فاحْتَذَوْا [4] ، إذَنْ لم يَبْلُغْ شأْوٌ ما بلغَ [5] ، ولم يَدُرَّ لهم من ضُروع القول ما دَرَّ ، لو أن طبَاعاً لم تَشْرَبْ من مائهم ، ولم تُغْذَ بجنَاهم [6] ، ولم يكن حالُهُمْ فى الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحهم [7] ، وتَشَمُّم الذى فاح من روائحهم ، حالَ النحل التى تَغْتَذى بأريجَ الأنوار [8] ، وطَيِّب الأزهار ، وتملأُ أجوافَها من تلك اللطائف ثم تَمُجُّهَا أَرْياً وتقذفها مَاذيّاً [9] ، إذن لكان الجاحظُ وغيرُ الجاحظ فى عداد عامَّة زمانهم الذين لم يَرْوُوا ، ولم يَحفَظُوا ، ولم يتتبعوا كلامَالأوَّلين ، من لَدُنْ [10] ظَهَر الشعر وكَانَ الخطابة إلى وقتهم الذى هم فيه ، ولم يعرفُوا إلا ما يَتَكَلّم به آباؤهم وإخوانُهم ومُساكنوهم فى الدار والمَحلَّة [11] ، أَو كانوا لا يزيدون عليهم إن زادوا إلا بمقدار معلوم ، فَمنْ أعظم الجهل وأشدِّ الغبَاوة ، أن يُجْعَل تقدُّمُ أحدهم لأهل زمانه من باب نَقْضِ العادة ، وأَن يُعَدَّ مَعَدَّ المُعْجز [12] .

* * *

٢٥ – فَمَثَلُ هذه الطبقة إذَنْ مع الصَّدْر الأوَّل ، وقياس هؤلاء الخَلَف مع أُولئك السَّلَف ، ما جرى بين ابن ميَّادة وعقَال ، قال ابن ميادة : =

(١) الأمصار والأعصار : الأمكنة والأزمنة . (٢) حققت النظر : أمعنت النظر .
(٣) جهة القدر : جمع قدرة وهى القوة . (٤) فاحتذوا : احتذى الشىء : سار على مثاله .
(٥) شأوه : مداه . (٦) تغذ بجناهم : تأكل ثمارهم .
(٧) قرائحهم : عقولهم . (٨) أنوارهم : جمع نَور ، أى ما خرج من نور الشجرة .
(٩) الأرى : العسل ، والماذى : أنقى أنواعه .
(١٠) من لدن ظهر الشعر : من أول ما ظهر الشعر .
(١١) المحلة : المكان ، ومنزل القوم . (١٢) يعدّ معد المعجز : يجرى مجرى الإعجاز .

٢٥ – ومثل ذلك مثل ما جرى بين ابن ميّادة وبين عقال من شعر : يقول ابن ميادة : إن شعراءنا فجّروا ينابيع الكلام ، وأصحاب الرواية سبحوا فى نهرهم وينابيعهم ، وشعرهم كُلْفة وتملّح .

فيجيبه عقال : بأن الفضل يرجع للسابقين ولا ينكره أحد، وليس لمخلوق أن يتبجح عليهم .

* * *

فَجـرْنا ينَابيعَ الكـلام وبَحْـرَهُ ... فأصْبـحَ فيه ذُو الرِّوايَة يَسْبَـحُ
وَما الشِّعْـرُ إلا شِعْرُ قَيْس وخنْدف ... وقَـولُ سِـوَاهُمْ كُلْفَـةٌ وتَمَلُّحُ [١]

فقال عقالٌ يجيبه :

ألا أبْلغِ الرَّمـاحَ نَقْـضَ مَقَـالة ... بهَـا خَطَـلَ الرَّماحُ أَوْ كَانَ يَمْـزَحُ
لقد خَـرَقَ الحَىُّ اليَمَانُونَ قَبْلَهُـمْ ... بُحُـورَ الكَلام تُسْتَقَى وَهْىَ طُفَّـحُ
وقـد عَلَّمُـوا مَـنْ بَعْـدَهُمْ فَتَعَلَّمُـوا ... وَهُـمْ أَعْرَبُوا هذا الكَلامَ وأَوْضَحُوا
فللسَّـابقين الفَضْـلُ لا تُنْكِـرُونَه ... ولَيْسَ لمَخْـلُوق عَلَيْهِمْ تَبَجُّحُ [٢]

٢٦ - وفى الذى قدَّمْتُ فى أَوَّلِ الجُزء مُفْتَتَحَ هذه الرسالة من قَوْل خالد بن صفْوان : «كيف نُجَارِيهم، وإنما نَحْكيهم»[٣]، وما أَتْبَعتُه من قـول الجاحظ فى شأن العرب، وفى أَنَّ الاقتداءَ بهم والأَخذَ منهم والتسليم لهم ، وأنهم لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم فى البيان أن يُضَاهِيَهم [٤]، ويقول مثلَ الذى قالوه فى جودة السَّبك والنَّحْت، وكثرة الماء والرَّوْنَق[٥]، إلا فى اليَسير غنًى للعاقل وكفاية، اللَّهم إلا أن يَتَجاهلَ مُتَجاهلٌ فيدَّعىَ فى الجاحظ وأمثاله فَضلاً لم يدَّعُوهَ لأنفسهم، أو يَزْعُم أنهم ضَامُوا أنفسهم[٦] تعصُّبًا للعـرب، فتشاهَدُوا لها بأَكثر مما عَـرَفُوا، وتواصـفوها بمـزيَّة وبما لم يـعلموا، فَـيفْتَحَ بـذلك بابًا من الرَّكـاكة[٧] والسُّخْف لا يُجَاب عن مثله، ولا يُشْتَغلُ بالإصغاء إليه، فَضْلًا عن الكلام عليه.

* * *

(قول الملحدة إن من البلغاء من يقدر على معارضة القرآن وتركوا ذلك خوفاً)

٢٧ - واعلم أنه إن خُيِّل إلى قوم من جُهَّال المُلحدَة [٨] أَنَّه كان فى المتأَخِّرين من البلغاء كالجاحظ وأشباه الجاحظ ، مَنْ استطاع مُعارضةَ القرآن فترَكَ خوفاً ، أو أنهم فعلُوا ذلك ثم أَخْفَوْه ، لم يُتصَوَّرْ تخيُّلهم ذلك حتى يَقْتَحموا [٩] ، هذه الجهَالة التى ذكرتُها ، أعنى أن يزعموا أنهم كانوا عنْد أنفسهم أفصحَ وأبلغَ مَن بُلغَاء قُرَيْشٍ وخطبائهم ، وأَنَّ خطيبَهم كان=

---

(١) كلفة وتملح : تكلف وتظرّف . (٢) خطل : فساد ، طفّح : طافحة ، تبجح : تهجم .
(٣) كيف نجاريهم ونحن نحكيهم : أى كيف نوازيهم ونحن نتبعهم .
(٤) يضاهيهم : يماثلهم . (٥) السبك والنحت والرونق ، كلها أوصاف للكلام المتلائم الجيد.
(٦) ضاموا أنفسهم : هضموها . (٧) الركاكة : التهافت والسقوط .
(٨) الملحدة : الذين خرجوا عن الدين . (٩) اقتحم الشىء : دخله عنوة .

٢٦ - يقول أصحاب البلاغة المشتغلون بها كيف نجارى الأقدمين ، ونحن عالة عليهم نحكى أقوالهم ونسير على منوالهم .

والجاحظ يقول فى شأن العرب ، ليس لنا إلا أن نتبعهم ونأخذ منهم ، ولا يستطيع أرفع الناس بياناً أن يماثلهم ، ويقول مثل أقوالهم فى أصالة نحتْهم وجودة سبكهم .

فإذا تغافل الرجل وادعى للجاحظ وأمثاله دعوى لم يذكرها الجاحظ لنفسه ، أو زعم أنهم ظلموا أنفسهم وهضموا أعمالهم تعصباً للعرب ، فأعطوهم أكثر مما ينبغى ووصفوهم بوصف هو أرفع من مكانتهم ، لفتحوا بذلك باباً من الجهالة والسخف ليس لنا أن نشغل أنفسنا به فضلاً عن الكلام عليه .

* * *

٢٧ - وإذا خيل لبعض الجهال أنه كان من المتأخرين كالجاحظ وأضرابه من استطاعوا معارضة القرآن لروعة بيانهم ، إلا أنهم تركوا ذلك خوفاً ، أو عارضوه ثم أخفوه ، وكأنهم يزعمون أنه كان بينهم من الناس من هو أفصح وأبلغ من خطباء العرب وشعرائهم المبرزين كامرئ القيس ، وقسّ بن ساعدة ، وسحبان وائل ، إلا أنهم تظاهروا بغير ذلك ومنعوا أنفسهم فضيلة التقدم ومنحوها للعرب .

فمن المحال أن يخصوا العرب بالمزيّة ويمنعوا أنفسهم عنها لقصورهم ، ثم يزعمون أنهم يستطيعون ما لم يستطعه العرب ، ويكملوا ما نقص منهم ، كفرسين فى حلبة السباق أحدهما سابق ، والآخر لاحق ، فهل يجوز لنا أن نزعم أن للاحق الأقل كفاءة ميزة وحذقاً لا يوجدان فى السابق ؟!

* * *

أَخطبَ من قُسٍّ وسَحْبَان، وشاعرَهم أَشعرَ من امرئ القيس ومن كُلِّ شاعر كان في العرب، إلا أنهم صانَعُوا الناس [1] ، فمنعوا أنفسهم الفضيلةَ ونَحَلُوها [2] العربَ ، وذاكَ أنَّ مُحالاً أنْ يعتقدُوا فيهم ، أَعْني في العرب ، ما اعتقده الناسُ ، وفى أنفسهم ما أفصَحوا به من القُصور [3] عن مُدَاناتهم ، وشدَّة الانحطاط عنهم ، ثُمَّ أن يستطيعوا ما لم يَسْتَطعْه العرب ، ويكْمُلوا ما لَمْ يَكْمُلوا له .

ومَنْ هذا الذى يشكُّ فى بُطْلان دَعْوَى من بلَغَ بالمصلِّى غايةً ، وقد انقطع السابقُ [4] ، وزعم فى النَّاقص الحذْق [5] أنه استقَلَّ بشىء عَيَّ به [6] المشهودُ له بالحذْق والتقدُّم ؟ هذا ما لا يدور فى خَلَد [7] ، ولا تنعقد له صُورَة فى وَهْم ، فاعرف ذلك .

* * *

فَصْلٌ فى فنٍّ آخر من السؤال

٢٨ – وهو أن يقولوا : إنَّا قد علمنا من عادات الناس وطَبائعهم أنّ الواحدَ منهم تُوَاتيه [8] العبارةُ ، ويُطيعه اللَّفْظُ فى صنْف من المعانى ، ثُمَّ يمتنع عليه مثْلُ تلك العبارة وذاك اللفظ فى صنْف آخرَ .

فقد يكون الرجل ، كما لا يَخْفَى ، فى المديح أشعرَ منه فى المراثى ، وفى الغَزَل واللَّهْو والصيد أنْفَذَ منه فى الحكَم والآداب، وتَراه يَسْتطيع فى الأوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثلَه فى سائر [9] المعانى ، وترى الكاتبَ وهو فى الإخوانيات أبلغ منه فى السلطانيات ، وبالعكس. هذا أمرٌ معروف ظاهر لا يَشْتَبه [10]. وإذا كان كذلك، فلعلَّ العَجْزَ الذى ظَهر فيهم عن مُعارضة القرآن، لم يظهر لأنَّهم لا يستطيعون مثْل ذلك النَّظْم، ولكن لأنهم لا يستطيعُونَه فى مثْل مَعَانى القرآن.

واعلم أنّ هذا السؤالَ يَجىء لهم على وجه آخرَ ، وفى صورة أُخرى ، وأنا أستقصيه [11] ، حتى إذا وَقَع الجوابُ عنه وَقَع عن جُمْلَته ، وكان الحَسْمُ [12] فى الداء كله ، وذاك أن يقولوا: إنَّه لا تَصحّ المطالبة إلا بما يُتَصَوَّر وجودُه ، وما يَدْخُل فى حيِّز [13] الممكن ، وإنَّا لنعلم من

---

(١) صانعوا الناس : مالئوهم وجاملوهم .
(٢) نحلوها العرب : خصوا بها العرب .
(٣) القصور عن الشىء : عدم الوصول إليه .
(٤) السابق : المتقدم .
(٥) الحذق : المهارة .
(٦) عيّ بالشىء : ضعف عنه ولم يحتمله .
(٧) يدور فى خلده : يجرى فى ذهنه .
(٨) تواتيه العبارة : تكون فى متناول يديه .
(٩) سائر المعانى : بقية المعانى .
(١٠) لا يشتبه : لا يغمض ولا يخفى على أحد .
(١١) أستقصيه : أحيط به علماً .
(١٢) الحسم : القطع .
(١٣) فى حيّز الممكن : فى نطاقه .

٢٨ - يقولون : إن من عادة الناس أن الواحد منهم تواتيه العبارة وتسلس له فى فن ، فإذا دخل فى فن آخر استعصت عليه وحرنت معه ، فقد يكون متفوقاً فى الغزل ، فإذا دخل فى المراثى لم يبلغ فيه المقدار الذى بلغه فى الغزل . وقد يكون سبّاقاً فى الفخر ، وهو أشعر منه فى المراثى وهكذا .

وكذلك الأمر فى الكتابة لا تختلف عن الشعر ، فقد يكون فى الاجتماعيات أفضل منه فى الرسميات إلى غير ذلك ، فإذا ظهر منهم عجز عن معارضة القرآن ، فليس لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ؛ بل لأنهم لا يستطيعونه فى مثل معانى القرآن .

أو يقولون : إنه لا يصح المطالبة إلا بما يدخل فى حيّز الممكن ، فإذا سبق شاعر إلى معنى من المعانى وارتفع فيه ، بحيث لا يمكن لشاعر آخر الوصول إلى معناه ، فيقضى للأول بأنه غلب على هذا المعنى واستبدّ به ، كبيت بشار مثلاً :

كأن مُثـار النقْع فوق رءُوسنا   وأسيـافَنا ليلٌ تهاوَى كـواكبُهْ

فهذا المعنى غلب عليه بشار واحتكره لنفسه حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يقترب منه .

حال المعانى أنّ الشاعر يَسْبِقُ فى الكثير منها إلى عبارة يُعْلَمُ ضرورةً أنها لا يَجىء فى ذلك المعنَى إلا ما هو دُونَها ومُنْحَطٌّ عنها ، حتى يُقْضَى له بأنّه قد غلبَ عليه واستبَدَّ به ، كما قَضَى الجاحظ لبَشَّار فى قوله :

كَــأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِـنَا   وأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ[١]

فإنه أنشد هذا البيت مع نظائره[٢] ، ثم قال : « وهذا المعنى قد غلب عليه بَشَّارٌ ، كما غلب عنترة على قوله :

وخَلا الذُّبَابُ بهَا فَلَيْسَ ببَارِحٍ   غَرِداً كفِعْلِ الشَّــارِبِ المُتَرَنِّــمِ
هَزِجـاً يَحُـكُّ ذِرَاعَهُ بذِرَاعِهِ   قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ[٣]

قال : فلو أنّ امرأ القيس عَرَضَ لمَذْهَبِ عنترة فى هذا لافْتَضَح » .

وليس ذاك لأن بشاراً وعَنْتَرة قد أُوتيا فى علم النَّظم جملةً ما لم يُؤْتَ غَيْرُهما ، ولكن لأنه إذا كان فى مكان خَبِىءٌ فعَثَر عليه إنسَانٌ وأخذه ، لم يَبْقَ لغيره مَرَامٌ[٤] فى ذلك المكان ، وإذا لَم يَكُنْ فى الصَّدَفَة إلا جوهرةٌ واحدة ، فعَمَد إليها عامدٌ فشقَّها عنها ، استحال أن يَسْتَام[٥] هو أو غيرُه إخراجَ جَوْهرة أُخرى من تلك الصَّدَفة . وما هذا سبيلَه فى الشعر كثيرٌ لا يَخْفَى على من مارس هذا الشأنَ ، فمن البيِّن فى ذلك قول القَطَامى :

فَهُــنَّ يَنْبِذْنَ منْ قَوْلٍ يُصِبْــنَ بِهِ   مَوَاقِعَ المَاءِ منْ ذِى الغُلَّةِ الصَّادِى[٦]

وقول ابن حازم :

كَفَــاكَ بالشَّــيْبِ ذَنْباً عِنْدَ غَانِيـةٍ ،   وبالشَّــبَابِ شَـفِيعاً أَيُّها الرَّجُــلُ

وقول عبد الرحمن بن حسان :

لَمْ تَفُتْهَا شَــمْسُ النَّهارِ بشَــيْءٍ   غَــيْرَ أنَّ الشَّــبَابَ لَيْسَ يَــدُومُ

وقول البحترى :

عَرِيقُونَ فِى الإِفْضَالِ يُؤْتَنَفُ النَّدَى   لِنَاشِئِهِمْ مِنْ حَيْثُ يُؤْتَنَفُ العُمْرُ[٧]

---

(١) مثار النقع : الغبار الذى تثيره سنابك الخيل فى المعركة ، تهاوى : تتساقط .

(٢) نظائره : أمثاله .

(٣) برح المكان : غادره ، المترنم : الذى يتغنى بصوته ، هزجا : طربا ، المكبّ : المنحنى على الزناد الأجذم : المقطوع . (٤) مرام : قصد وهدف . (٥) يستام : يطلب .

(٦) الغلة : العطش الشديد . (٧) لهم جذور فى الفضل وقد عرفوا بالكرم منذ استقبلوا الحياة .

وقالوا ذلك أيضاً فى بيتى عنترة وهو يصف الذباب : « لو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنترة فى هذا لافتضح » ليس ذلك لأن بشاراً وعنترة قد أوتيا فى علم النظم ما لم يؤت غيرهما، بل هما كشىء خفى فى مكان فعثر عليه إنسان فأخذه، وشبه ذلك بالصدفة التى ليس بها إلا جوهرة واحدة، فعمد إليها رجل وأخذها، استحال على رجل آخر أن يأخذ منها جوهرة ثانية ، إذ لا يوجد سوى واحدة التى أخذها الأول ، ثم أصبحت الصدفة فارغة ، وهذا شأن الشعر الذى لا يخفى على أحد .

ويذكر عبد القاهر دليلاً على قوله وصوابه أبياتاً من الشعر للقطامى ، وابن حازم الباهلى ، وعبد الرحمن بن حسان ، والبحترى ويعقب على ذلك فيقول : إن معانى هذه الأبيات **لا يوجد مثلها فى شعر الشعراء ؛ لأن الأمر فيها قد بلغ غايته ولم يبق لطالب مطلب فوق ذلك أو مداناته .**

* * *

لا ينظر فى هذا وأشباهه عارفٌ إلا علم أنه لا يُوجد فى المعنى الذى يُرَى مثله ، وأن الأمر قد بَلَغَ غايتَه ، وإنْ لم يبقَ للطَّالب مَطلبٌ .

* * *

(ما جاء على هذا الوجه من الكلام المنثور)

٢٩ - وكذلك السبيلَ فى المنثور من الكلام ، فإنك تجد فيه مَتَى شئتَ فصولاً تعلَمُ أن لن يُسْتَطَاعَ فى معانيها مثْلُها ، فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : « قيمةُ كُلِّ امرئ ما يُحْسِنُه » ، وقول الحسن رحمة الله عليه :

« مَا رأيتُ يَقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ بشكٍّ لا يقين فيه من الموت » ، ولن تَعْدَم ذلك إذا تأمَّلت كلامَ البلغاء ونظَرت فى الرسائل .

ومِن أخص شيء بأن يُطْلَب ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأةُ الموضوعةُ فى العلوم المستخرجه ، فإنّا نجد أربابَها [1] قد سبَقوا فى فصول منها إلى ضرب من اللَّفظ والنظم ، أعْيَا [2] مَن بَعْدَهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشَبيه له ، فجعلوا لا يَزيدون على أن يَحْفَظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويُؤَدُّوا ألفاظهم فيهَا على نظامها وكما هى .

وذلك ما كان مثل قول سيبويه فى أول الكتاب [3] :

« وأما الفعْل فأمْثلةٌ أُخذت من لَفظ أحْدَاث الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مضى وما يكون ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لم يَنْقَطع » .

- لا نعلم أحداً أتى فى معنى هذا الكلام بما يُوازنه أو يُدانيه ، أو يقع قريباً منه ، ولا يَقَع فى الوَهْم أيضاً أنَّ ذلك يُسْتَطاع ، أفلا ترى أنه إنما جاءَ فى معناه قولهم :

« والفعل ينقسمُ بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يَخْفَى ضعفُ هذا فى جنبه وقُصُورُه عنه ، ومثله قوله :

« كأنَّهم يُقَدِّمون الذى بيَانُه أَهمُّ لهم ، وهُمْ بشأْنه أَعْنَى ، وإن كانَا جميعاً يُهِمّانهم ويَعْنيَانهم» .

* * *

(١) أربابها : أصحابها .

(٢) أعيا من بعدهم : أجهدهم .

(٣) الكتاب : كتاب سيبويه بهذا الاسم .

٢٩ - وما يجرى فى الشعر من قول لا يدانيه فى معناه شاعر آخر ، يجري مثله فى النثر كقول عليّ رضى الله عنه : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » ، وغير ذلك من النثر الذي تفرد بمعناه وامتاز على غيره .

وأيضاً العلوم المبتدأة المستنبطة بقريحة الذهن ولم يسبق فى استخراجهـا أحد، حتى إنها أعيت من حاول أن يـجيء بمثلها فى دقة التعبير عنها ، كقول سيبويه فى تقسيم الفعل إلى ما مضى ، وما يكون ، وما لم يقع ، وما هو كائن ، وكقوله فى التقديم :

كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعْنَى ، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويَعنيانهم .

❊ ❊ ❊

٣٠ - وإذا كان الأمرُ كذلك لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآن ونَظْمه هذا السبيل ، وأن يكون عَجْزَهم عن أن يأتوا بمثله فى طريق العَجْز عمَّا ذكرنا ومثَّلنا ، فهذا جُمْلَةُ ما يجيء لهم فى هذا الضرب من التعلّق قد استوفيتُه ، وإذ قد عرفتَه ، فاسمع الجواب عنه ، فإنه يُسْقطه عنك دفعةً ، ويَحْسمه عنك حَسْماً (١) .

* * *

(تفصيل القول فى معنى التحدى)

٣١ - واعلم أنهم فى هذا كرَام قد أَضلَّ الهدَفَ ، وبان قد زَال عن القاعدة ، وذاك أنه سؤال لا يَتَّجه حتى يُقَدَّر أن التَّحدِّىَ كان إلى أن يُعَبِّروا عنِّ معانى القرآن أَنْفُسها وبأعيانها بلفظ يُشبه لَفظَه ، ونَظْم يُوازى نظمَه ، وهذا تقدير باطلٌ ، فإنَّ التحدّى كان إلى أن يجيئوا فى أىِّ معنى شاءوا من المعانى بنظم يَبْلُغ نظم القرآن فى الشَّرَف أو يَقْرُب منه ، يدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود : ١٣) ، أى مثله فى النظم، وليكن المعنى مُفْتَرًى كما قُلْتم ، فلا إلى المَعَنى دُعيتُمْ ، ولكن إلى النَّظم ، وإذا كان كذلك ، كان بيِّناً أنه بناءٌ على غير أساس ، ورَمْىٌ من غير مَرْمىً ، لأنه قياسُ ما امتنعت فيه المعارضةُ من جهة وفى شىء مخصوص ، على ما امتنعت معارَضَتَهُ من الجهات كلِّها وفى الأشياء أجمعها .

فلو كان إذ سَبَق الخليلُ وسيبويه فى معانى النَّحو إلى ما سبقَا إليه من اللَّفظ والنَّظم ، لم يسبق الجاحظُ فى معانيه التى وضعَ كتُبه لها إلى ما يُوازى ذلك ويُضَاهيه ، أو كان بَشَّارٌ إذ سبق فى معناه إلى ما سبق إليه ، لم يُوجد مثْلَ نظمه فيه شاعر فى شىء من المعانى - لكان له فى ذلك متعلَّقٌ ، فأما ولَيْسَ من نَظْم يقال : « إنّه لم يسبق إليه » فى معنًى ، إلا ويُوجَد أمثالُه أو خيرٌ منه فى معانٍ أُخَر ، فمن أشدِّ المُحَال وأَبْيَنه الاعتراضُ به .

واعلم أَنَّا لو سلّمنا لهم الذى ظَنُّوه على بُطلانه ، من أن التحدى كان إلى أن يُعبَّر عن أَنْفُس معانى القرآن بما يشبه لَفظه ونظمَه ، لم نَعْدَم الحجَاجَ معهم ، وأن يكون لنا عليهم كلامٌ فى الذى تعلَّقُوا به ، ودفعٌ لهم عنه ، إلا أَن العلماءَ آثروا أَنْ يكونَ الجوابُ من الوجه الذى ذكرتُ ، إذ كان وَفْقَ ما نُصَّ عليه فى التنزيل ، وكان فيه سدُّ الباب وحَسْمُ الشُّبه جُمْلةً ، ومن ضَعْفِ الرأىِ أن تسلُكَ طريقاً يَغْمُضُ ، وقَدْ وَجْدت السَّنَن اللاَحبَ (٢) ، وأَن تُطَاوِلَ

---

(١) يحسمه حسماً : يقطع الكلام فيه نهائياً .

(٢) السنن اللاحب : الطريق الواضح .

٣٠ - وإذا كان الأمر كذلك فى الشعر وفى النثر كان مثله فى القرآن ، فعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ، كعجزهم عن أبيات معروفة فى الشعر كالتى مثلنا بها لبشار وغيره ، وفى النثر كما مثلنا بقول علىّ رضى الله عنه وغيره .

وإذ قد عرفت ما قالوه فى هذا الزعم ، وأدركت الجواب عنه الذى يُسقط ادعاءهم ويُفحم زعمهم .

* * *

٣١ - قدّر المعارضون أن التحدى كان بأن يعبروا عن معانى القرآن بأعيانها وبلفظ يشبه لفظه ، وهذا باطل ؛ لأن التحدى لم يكن فى الإتيان بمعنى فى مثل معنى القرآن ، ولكن كان بالإتيان بنظم مثل نظمه فى أىِّ معنى شاءوا . والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** ﴾ أى مفترى فى أى معنى تريدون ، فكان شأنهم شأن من يرمى بسهم فيضلّ الهدف ، أو يبنى على غير أساس ، وقاسوا الشىء الذى يمتنع بنظمه ، على الشىء الذى يمتنع بمعناه ، فكان قياسهم على بطلان وفساد .

وإذا حكمنا للخليل وسيبويه فى معانى النحو بالسبق فى لفظه ونظمه ، حكمنا حينئذ بأن الجاحظ لم يسبق فى معانيه إلى ما يضاهى ما جاء به الخليل وسيبويه .

وكذلك إذا كان بشار قد أتى فى بيته المشهور عن المعركة بالمعنى الذى لم يسبق إليه ، وكان غيره من الشعراء لا يدانوه فى شىء من معناه ، لكان لهم العذر فى ذلك ، أما وأن الأمر لا يتعلق بالمعنى ، وإنما يتعلق بالنظم وأنه لم يسبق إليه فى معنى ، إلا ويوجد مثل نظمه أو خير منه ، فى معناه أو فى معان أخر ، فهذا من أشد المحال وأبعده عن الاعتراض .

ولو سلمنا جدلاً أن التحدى وقع فى معانى القرآن بما يشبهه فى اللفظ والنظم ، لما عدمنا الحجة عليهم ، ولكن العلماء فضلوا أن يكون التحدى على الوجه الذى ذكرنا بأن يأتوا بأى معنى ، ولكن فى نظم القرآن تسهيلاً عليهم ، حتى نحسم الشبهة ونقطع الحجة ، فمن ضعف الرأى أن يطول علاج المريض ومعك الدواء الذى يشفيه .

* * *

المريضَ فى علاجك ، ومعكَ الدواءُ الذى يشفى من كَثَب [1] ، وأن تُرْخِيَ من خِناق [2] الخَصْم ، وفى قُدْرتك ألا يملك نَفَساً ، ولا يستطيع نُطْقاً .

* * *

٣٢ - ثُمَّ إن أردت أن تكلِّمهم على تسليم ذلك ، فالطريق فيه أن يقال لهم على أوّل كلامهم حيث قالوا : « إنّا رأينا الرجلَ يكونُ فى نوع أشعرَ ، وعلى جَوْدَة اللفظ والنظم أقدرَ منه فى غيره » - إنه ينبغى أن تعلموا أوَّلَ شىء أنكم حرَّفْتُم كلام الناس فى هذا عن موضعه، فإنا إذا تأمّلنا الحالَ فى تقديمهم الشاعرَ فى فَنٍّ من الفنون ، وجدناهم قد فَعَلُوا ذلك على مَعْنَى أنَّه قد خَرَّج [3] فى معانى ذلك الفنّ ما لم يُخَرِّجْه غيره ، واتَّسَع لما لم يتسع له مَنْ سواه، فإذا قالوا : « هو أنسب الناس » ، فالمعنى أنه قد فَطَن فى معانى الغزل ، ومَا يدلُّ على شدّة الوَجْد[4] وفَرْط الحب والهَيَمان لما لم يَفْطُن له غيره ، وكذلك إذا قالوا : « أمدح ، أو أهجَى » ، فالمعنى أنه قد اهتدى فى معانى الزَّيْن والشّين وفى التَّحْسينَ والتَّهْجين [5] إلى ما لم يَهتد إليه نظراؤه[6] ، ولو كانُوا فى اللفظ والنظم يذهبون ، لكانَ محالاً أن يقولوا : « هو أنسب » ، لأنّ ذلك فى صفة اللفظ والنظم مُحالٌ ، ومَنْ هذا الذى يشكّ أنْ لَمْ يكن قَوْلُ جرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ [7]

أمدحَ بيت عند من قال ذلك ، من أَجْلِ لفظه ونظمه ، وأنَّ ذلك كان من أجل معناه ؟ هذا ما لا مَعْنَى لزيادة القول فيه .

* * *

٣٣ - فإن قالوا : هُمْ ، وإنْ كانوا قد أرادوا المعنى فى قولهم : « هذا أمدحُ ، وذاك أهجَى، وهذا أنسبُ ، وذاك أوْصَفُ » ، فإنه لن تَتَّسع المعانى حتى تتَّسع الألفاظ ، ولن تَقَع مواقعها المؤثِّرة حتى يحسُن النظم ، وإذا كان كذلك ، فموضعُنا منه بحاله ، ثم ليس بمُنْكَر ولا مَجْهول أن يكون لفظُ الشاعر ونَظْمُه إذا تعاطَى المدحَ ، أحسنَ وأفضلَ منهما إذا هو هجا أو نَسَب .

---

(١) كثب : قرب .

(٢) خناق الخصم : العنان والحبل ، أى ترخى له الأمر وتسهله عليه .

(٣) خرّج فى معانى ذلك : أتى فى معانيه . (٤) الوجد : الحب والهيام .

(٥) التهجين : التقبيح . (٦) نظراؤه : أمثاله .

(٧) المطايا : الإبل ، راح : راحة اليد يصفهم بالكرم الشديد .

٣٢ – ونعود إلى ما قالوه مرة أخرى إن الرجل قد يكون فى نوع أشعر وفى اللفظ والنظم أجود منه فى نوع آخر .

وإذا تأملنا ذلك وجدنا أن الشاعر قد أتى فى معانى ذلك الفن ما لم يأت به غيره ، فإذا قالوا : فلان أنسب الناس أو أمدحهم أو أهجاهم ، بمعنى أنه وجد فى معانى الغزل من الوجد ما لم يجده غيره ، واهتدى فى معانى المدح والهجاء ما لم يهتد إليه نظراؤه . فهم يريدون المعنى ويستحيل أن يكون مرادهم النظم ، إذ لو كان كذلك ، أى أنه أنسب أو أمدح أو أهجى ؛ لما كان من صفات اللفظ والنظم .

وقول جرير :

ألستمْ خيرَ مَنْ ركِب المطايا وأنْدى العالمين بُطــونَ راحِ

لا يشك أحد بأنه أمدح بيت قالته العرب ليس لمعناه ؛ بل لما فيه من جمال لفظ ونظم .

* * *

٣٣ – إن قالوا : هم وإن أرادوا المعنى فى قولهم : « هذا أنسب أو أمدح وذاك أوصف أو أهجى » إلا أن المعانى لا تتكشّف إلا باللفظ ، ولا تؤثّر إلا بالنظم ، فالأمر لا يخرج عما قلناه من أن يكون الإعجاز بالنظم واللفظ .

ومن المعلوم أن الشاعر قد يظهر فضله فى نوع من الشعر دون نوع آخر ، فقد يكون مبرزاً فى الهجاء ساقطاً فى المدح وهكذا ، أو عالياً فى الغزل منحدراً فى الفخر .

قلنا : أخبرونا عن معانى القرآن أهى صنف واحد أم أصناف متعددة ، إن كانت صنفاً واحداً ، كذبتم وتجاهلتم الواقع ؛ فالقرآن أصناف كثيرة : فيه الحكمة والموعظة ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والتشبيه والتمثيل ، وغير ذلك مما يجده قارئ القرآن أو من يستمع إليه .

وإن كان القرآن أصنافاً متعددة ، فلماذا لا تعمدون إلى بلغائكم فى كل من بذّ فى فن من الفنون ، وتجعلون الأمر قسمة بينهم حتى يعاوضوا القرآن بمثل نظمه ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن ذلك مما يؤكد إعجاز القرآن ، وعدم مجاراة بلغائكم لأسلوبه ونظمه .

* * *

قيل : إنَّا نَدَع النِّزَاع فى هذا ونسلِّمه لكم ، فأخبرونا عن معانى القرآن ، أهى صنفٌ واحدٌ أم أصنافٌ ؟ فإن قلتم : « صنف واحدٌ » ، تجاهَلْتُم ، فقد علمنا الحُجَج والبراهينَ ، والحِكَم والآداب ، والترغيبَ والترهيبَ ، والوعدَ والوعيدَ ، والوصفَ والتشبيهَ والأمثالَ ، وذِكْر الأُمم والقرون واقتصاصَ [1] أحوالهم ، والنَّبَأَ [2] عمّا جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام وما لا يُحْصَى ولا يُعَدّ .

وإن قلتم : « هى أصنافٌ » ، كما لا بُدَّ منه .

قيل لكم : فقد كان ينبغى لشعراء العرب وبُلَغائها أن يَعْمِدَ كلٌّ منهم إلى الصِّنْف الذى تنفُذُ قريحتُه فيه فيعارضه ، وأن يجعلوا الأمر فى ذلك قِسْمةً بينهم [3] . وفى هذا كفاية لِمَنْ عَقَل .

* * *

٣٤ – وأمَّا قولهم : « إنَّه قد يكون أن يَسْبِقَ الشاعرُ فى المعنى إلى ضَرْب من اللفظ والنظم، يعلَم أنه لا يجىءُ فى ذلك المعنى أبداً إلى مَا هو مُنْحَطٌّ عنه » [4] – فإنه ينْبغى أن يُقالَ لهم : قد سلَّمنا أن الأمر كما قلتُمْ وعَلِمتم ، أفعلمتم شاعراً أو غير شاعر عَمَدَ إلى ما لا يُحْصَى كثرةً من المعانى ، فتأتَّى له فى جَميعها لفظٌ أو نظمٌ أعيَا [5] الناس أن يستطيعوا مثلَه ، أو يَجدوه لمن تقدّمهم ؟ أم ذلك شىء يتَّفق للشاَّعر ، من كل مئة بيت يقولها ، فى بيت ؟ ولعل غيرَ الشاعر على قياس [6] ذلك . وإذا كان لا بُدَّ من الاعتراف بالثَّانى من الأمرين ، وهو أن لا يكون إلا نادراً وفى القليل ، فقد ثَبت إعجازُ القرآن بنَفْس ما رامُوا به دَفْعَهُ [7] ، من حيثُ كان النظمُ الذى لا يُقْدَرُ على مثله قد جاءَ منه فيما لا يُحْصَى كثرةً من المعانى .

* * *

٣٥ – وهكذا القول فى الفصول التى ذكروا أنَّه لم يُوجَدْ أمثالُهَا فى معانيها ، لأنها لا تستمرُّ ولا تكثُرُ ، ولكنك تَجدُها كالفُصوص الثمينة والوسَائط النَّفيسة وأفْرَاد الجواهر [8] ، تَعُدُّ كثيراً حتى تَرى واحداً ، فهذا وشِبْهُهُ من القول فى دَفْعهم – مَع تسليم مَا ظَنُّوه من أنَّ التحدِّيَ كان إلى أن يُعبِّر عن معانى القرآن أنْفُسها مُمْكنٌ غيرُ متعذِّر، إلا أنَّ الأوْلى أن يُلْزَم

---

(١) اقتصاص أحوالهم : تتبعها .
(٢) النبأ : الخبر إذا كان هاماً .
(٣) قسمة بينهم : يقتسمونه فيما بينهم .
(٤) منحط عنه : أقل منه .
(٥) أعيا الناس : أجهدهم .
(٦) قاس الشىء على غيره : قدره على مثاله .
(٧) راموا دفعه : قصدوا تنقيصه.
(٨) أفراد الجواهر : أعيان الجواهر وأغلاها قيمة .

٣٤ – وإذا كان الشاعر يلجأ في شعره إلى معنى لم يصل إليه أحد قبله ولم يدانيه أحد فى لفظه ونظمه ، أيكون ذلك فى جميع قصائده ، وفى كل بيت من أبياته الشعرية أم أن رفعته تكون فى بيت من مائة بيت ، أو فى قصيدة من مئات القصائد ؟ فلا بد من الاعتراف بأن ذلك يكون فى النادر والقليل من شعره .

أما إعجاز القرآن فقد جاء فى كل سوره ؛ بل فى جميع آياته ، وليس فى سورة دون سورة ، ولا فى آية خلاف آية ، مما يجعلكم تسلمون بإعجاز القرآن كله دفعة واحدة .

* * *

٣٥ – وهكذا القول فى النثر ، تحصى كثيراً من الفقرات ، ثم لا تجد إلا واحدة تتبوأ المنزلة السامية كمن يعثر على جوهرة يتيمة بين ركام من الأتربة .

ونحن نسلم لهم بهذا القول مع التسليم بظنهم أن التحدى إنما وقع فى أنفس معانى القرآن .

ولكن لماذا نركب الصعب ونحيد عن الطريق الواضح : **وهو أن التحدى إنما كان فى أى معنى يشاءون ، ولكن بلفظ ونظم مماثل للقرآن ، وليس بالإتيان بأنفُس المعانى .**

* * *

الجَدَدُ الظَّاهر [١] وأن لا يُجَابوا إلى ما قالوه من أنَّ التحدِّيَ كان إلى أن يُؤتَى فى أنْفُسِ معانيه بنظمٍ ولفظٍ يُشَابِهه ويُساويه ، ويُجْزَم لهم القولُ بأنهم تُحُدُّوا إلى أن يَجيئوا فى أيِّ معنى أرادوا مُطْلقًا غيرَ مقيَّد ، ومُوسَّعاً عليهم غيرَ مُضيَّق ، بما يشبه نظمَ القرآن أَو يَقْرُب من ذلك .

* * *

٣٦ - وممَّا يُحيل أن يكون التحدّى قد كان إلى ما ذكروه ومع الشرط الذى توهَّمُوه ، أنَّ العربَ قد كانت تعرفُ « المُعارَضَةَ » [٢] ما هى وما شرطها ، فلو كان النبىُّ ﷺ قد عَدَلَ بهم فى تحدِّيه لهم إلى ما لا يُطَالَبُ بمثله ، لكان ينبغى أن يقولوا : « إنك قد ظلمتَنا ، وشرطتَ فى معارضة الذى جئتَ به ما لا يُشْتَرط ، أوْ ما ليس بواجب أن يُشْتَرَط ، وهو أن يكون النَّظم الذى نُعَارض به فى أنفس مَعانى هذا الذى تحدَّيتَ إلى معارضته ، فدعْ عَنَّا هذا الشَّرْطَ ، ثم اطْلُب فإنا نُريك حينئذ ممَّا قاله الأوَّلون وقُلْنَاه وما نقولَه فى المستأنَف ، ما يُوازى نَظمَ ما جئتَ به فى الشرف والفضل ويُضَاهيه ، ولا يَقْصرُ عنه » . وفى هذا كفايةٌ لمن كانت له أُذُنٌ تَعى [٣]، وقَلْب يعقلُ .

* * *

قد تَمَّ الذى أردتُه فى جواب سؤالهم ، وبانَ بُطلانه بياناً لا يبقى معه إن شاءَ اللهُ شكٌّ لناظر، إذا هو نَصَح نفسه وأَذْكَى [٤] حسَّه ، ونَظَر نَظَرَ مَنْ يريد الدِّين ، ويرجو ممّا عند الله ، ويريد فيما يقولُ ويعملُ وَجْهَه تقدَّسَ اسمه ، وإليه تعالى نَرْغَبُ فى أن يجعلَنا ممَّن هذه صفته فى كل ما نَنْتَحيه ونَنْظُر فيه ، بفَضْله ومنِّه ورحمته ، إنه على ما يشاء قدير .

الحمدُ لله حَقَّ حمده ، والصلاةُ على رسوله محمد وآله من بعده .

* * *

---

(١) الجدد الظاهر : الطريق الواضح .

(٢) المعارضة : المناقضة فى الكلام .

(٣) أذن تعى : تسمع وتحفظ .

(٤) أذكى حسه : ألهب حواسه .

٣٦ - ومما يجعل أمر التحدى بأنفس معانى القرآن مستحيلاً وغير وارد ، أن العرب كانت تعرف المعارضة وشروطها ، ولو كان التحدى بنفس معنى القرآن لحقّ لهم أن يطلبوا من الرسول ﷺ تنحية هذا الشرط ، وقالوا : دع عنا هذا الشرط، ثم اطلب منا فنريك من أقوال السابقين واللاحقين ما يوازى نظم القرآن الذى تدعى إعجازه ، ولنا فى ذلك فضل وشرف يضاهيه ولا يقل عنه .

والحمد لله والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين .

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَصْلٌ

فى الذى يَلْزَمُ القائلين بالصَّرْفة

٣٧ – اعلم أنّ الذى يَقَعُ فى الظنِّ من حديث القول بالصَّرْفَة ، أن يكون الذى ابتدأ القولَ بها ابتدأه على تَوَهُّم أن التّحَدِّيَ كان إلى أن يُعبِّر عن أنْفُس معانى القرآن بمثل لفظه ونَظْمه ، دون أن يكون قد أُطْلِق لَهم وخُيِّروا فى المعانى كلِّها ، ذاكَ لأنَّ فى القول بها على غَيْر هذا الوجه أُموراً شنيعة ، يَبْعُدُ أن يرتكبَها العاقلُ ويدخلَ فيها ، وذاك أنه يلزَم عليه أن تَكونَ العربُ قد تراجعت حالُها فى البلاغَة والبيان ، وفى جَوْدَة النظم وشَرَف اللفظ – وأن يكونوا قد نَقَصُوا فى قرائحهم وأذهانهم ، وعَدموا الكثير مما كانوا يستطيعُون – وأن تكونَ أشعارُهم التى قالوها ، والخطبُ التى قاموا بها ، وكلُّ كلام احتَفَلُوا فيه [٢] ، من بَعْد أن أُوحيَ إلى النبى ﷺ ، وتُحدُّوا إلى معارضة القرآن – قاصرةً عمَّا سُمع منهم من قبل ذلك القُصُورَ الشديد ، وأنْ يكون قد ضَاقَ عليهم فى الجُمْلة مَجَالٌ قد كان يتّسع لهم ، ونَضَبَت [٣] عنهم موادُّ قد كانت تغزُر [٤] ، وخَذَلَتهم قُوًى [٥] قد كانوا يَصُولون بها ، وأن تكون أشعارُ شُعراء النبيِّ ﷺ التى قالُوها فى مدحه عليه السلام وفى الرد على المشركين – ناقصةً متقاصرةً عن شعرهم فى الجاهلية ، وأنْ يُشَكَّ فى الذى رُوى فى شأن حسان من نحو قوله عليه السلام : « قُلْ وروحُ القُدُس مَعك » [٦] ، لأنه لا يكونُ مُعَاناً مُؤَيداً من عند الله ، وهو يَعْدَمُ [٧] مما كان يَجده قبلُ كثيراً ، ويتقاصَرُ أُنُفُ [٨] حاله عن السالف منها تقاصراً شديداً .

* * *

---

(١) الصرفة : معناها أن العرب كانوا قادرين أن يأتوا بمثل معانى القرآن بلفظه وتأليف كلماته إلا أن الله صرفهم عن ذلك .

(٢) احتفلوا به : اهتموا به وقدروه .

(٣) نضبت : جفت .

(٤) تغزر : تفيض .

(٥) خذلتهم قوى : تخلت عنهم قدرتهم .

(٦) روح القدس : جبريل عليه السلام .

(٧) يعدم : يخلو .

(٨) أنُف حاله : جديد حاله .

فَصْلٌ
القول بالصرفة

٣٧ – إن الذين قالوا بالصَّرفة بنوا كلامهم على توهم أن إعجاز القرآن يكون فى التعبير عن أنفس المعانى القرآنية بلفظها ونظمها ، وليس مطلق معانٍ يأتون بها غير مقيدة بالمعانى التى تحدث عنها القرآن .

ويترتب على هذا القول بالصرفة أن يكون العرب قد تضاءلت بلاغتهم وضعف بيانهم فى زمن الرسول ﷺ عن بلاغة العرب وروعة بيانهم فى الجاهلية ، وأن تكون أشعارهم وخطبهم وكل كلام قالوه بعد أن أوحى إلى النبى قاصر عما قيل قبل مبعثه ، وضاق عليهم ما اتسع على من سبقهم ، وأن يكون قول الرسول لحسان بن ثابت : « قل وروح القدس معك » مشكوكاً فى صحته ؛ لأنه لا يطلب العون لرجل قد عدم ما كان متوافراً عند قومه الأولين ، وقصر عنهم قصوراً شديداً .

* * *

٣٨ – فإن قالوا : إنه نُقْصانٌ حَدَث فى فصاحتهم من غير أن يَشْعُروا به .

قيل لهم : فإن كان الأمرُ كذلك ، فلم تَقُمْ عليهم حُجَّة ، لأنه لا فرقَ بين أن لا يكونُوا قد عَدِمُوا شيئاً من الفصاحة التى كانوا يَعْرفونها لأنفسهم قبل التحدِّى بالقرآن والدعاء إلى معارضته ، وبَيْنَ أن يكونوا قد عَدِموا ذاك ، ثُمَّ لم يعلموا أنهم مُمْكناً قبل أن تُحُدُّوا ، ولا يكون مَنْعٌ حتى يُرام المنوع [1] ولا يُتَصَوَّر أن يَرُومَ الإنسان الشىءَ ولا يعلمُه ، ويَقْصدَ فى قول له وفعل إلى أن يجىءَ به على وصف وهو لا يعرف ذلك الوصفَ ولا يَتَصَوَّرُه بحال من الأحوال ، وإذا جَعلناهم لا يعلَمون أنَّ كلامهم الذى يتكلَّمون به اليومَ قاصرٌ عن الذىَ تكلَّمُوا به أَمْس ، وأنْ قد امتنعَ عليهم فى النَّظْم شىءٌ كان يُوَاتيهم [2] ، وسُلبوا منه معنىً قد كان لهم حاصلاً – استحالَ أن يعلموا أنَّ لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذى يُسْمَع منهم، وعلى النَّظْم الواهن الباقى لهم [3] ، ذاك لأنَّ عُذْرَ القائل بالصَّرْفة ، أنَّ كلامهم قَبْلَ أن تُحُدّوا قد كان مثل نَظْم القرآن ، ومُوازياً له ، وفى مبلغه من الفصاحة .

* * *

٣٩ – وإذا كان كذلك ، لم يُتَصَوَّر أن يعلَمُوا أن للقرآن مزيةً على كلامهم ، وعندهم أن كلامهم باقٍ على ما كان عليه فى القديم لم يَنْقُص ولم يَدْخُلْه خَلَلٌ [4] ، وإذا لم يُتَصَوَّر أن يعلموا أن للقرآن مزيةً على ما يقولونه ويَقْدرون عليه فى الوقت ، لم يُتَصَوَّر أن يُحَاولوا تلك المزيّةَ ، وإذا لم يحاولوها لم يُحسُّوا بالمنع منها والعَجْز عن نَيْلها ، وإذا لم يُحَسُّوا بالعجز والمَنْع لم تقم عليهم حُجَّةٌ به . فالذى يُعْقَل إذَنْ مع هذه الحال ، أن يعتقدوا أنهم قد عارَضوا القرآن وتكلَّموا بما يُوازيه ويَجْرى مَجْرَى المِثْل له ، من حيث إنه إذا كان عندهم أنَّ كلامهم باقٍ على ما كان عليه فى الأصل وقَبْلَ نزولَ القرآن ، وكان كلامُهم إذ ذاك فى حَدِّ [5] المِثْل والمُساوى للقرآن ، فواجبٌ مع هذا الاعتقاد أن يعتقدُوا أنّ فى جملة ما يقولونه فى الوَقْت ويقدرون عليه ، ما يُشْبه القرآنَ ويُوازيه .

* * *

٤٠ – واعلم أنه يَلْزَمهم أن يَقْضُوا [6] فى النبىِّ ﷺ بما قَضَوْا فى العرب ، من دخول النَّقْصِ على فصاحتهم ، وتَرَاجُع الحالِ بهم فى البيان ، وأن تكون النُّبُوَّةُ قد أوجبت أن يُمْنَع

(١) يرام المنوع : يقصد .
(٢) يواتيهم : كان طوعهم وقادرين عليه .
(٣) الواهن : الذى أصابه الضعف .
(٤) خلل : فساد .
(٥) فى حد المثل: فى نطاقه وحدوده .
(٦) يقضوا : يحكموا .

٣٨ – فإن قالوا : إن فصاحة العرب قد نقصت دون شعور منهم . نقول : إن كان الأمر كما زعمتم لم تقم عليكم الحجة ، ولا فرق بين ألا يتصفوا بالفصاحة التى كانوا يعرفونها فى أنفسهم ، وبين أن تكون لديهم الفصاحة ثم سلبت عنهم دون أن يعلموا ذلك ؛ لأنهم كما يزعمون كانوا قادرين أن يأتوا بمثل القرآن فى لفظه ونظمه قبل التحدى؛ إذ لا يتصور أن يقصد المرء فى قول أو فعل ، أو يأتى بوصف لا يعرفه ولا يتصوره فى حال من الأحوال .

وإذا كان كلامهم الذي يتحدثون به اليوم قاصراً عما كانوا يتحدثون به بالأمس ، وامتنع عليهم النظم الذى كان سهلاً عليهم يواتيهم حيثما أرادوا ، استحال عليهم أن يعرفوا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذى يتفوهون به ، فعذر القائلين بالصرفة أن كلامهم كان مثل نظم القرآن بلاغة ونظماً ، ولكن قبل أن يتحداهم الرسول بالقرآن .

ومن ثم كان قولهم بالصرفة ، أى أن الله صرفهم عن الإتيان بمثل نظم القرآن ، وإن كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله .

* * *

٣٩ – وإذا قالوا : إن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، لم يتصور منهم أن يكون للقرآن ميزة على كلامهم ، وكلامهم فى زمن الرسول لم ينقص عن كلامهم قبله ، وإذا لم يحسوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم الحجة .

فالذى يعقل والحالة هكذا أن يعتقدوا أنهم عارضوا القرآن وأتوا بمثله وما يجرى مجراه وأن يعتقدوا فى جملة ما يقولون ما يشبه القرآن ويوازيه بلاغة ونظماً .

* * *

٤٠ – وإذا قالوا : إن فصاحتهم فى زمن النبى قد نقصت عما كانت عليه قبل مبعثه فقد وجب عليهم أن يقضوا فى النبى بما قضوا به على أنفسهم من نقصان الفصاحة ، وأنه منع من شرف اللفظ وحسن النظم كما منعوا ، وإذا لم يقضوا بذلك لكان قوله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثْل هذا القرآن لا يأتون بمثْله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً** ﴾ ، وهو فى حال من الفصاحة يستطيع بها أن يجيء بمثل القرآن فى شرف اللفظ ودقة النظم .

اللهم إلا إذا زعموا أن الرسول عليه السلام كان أقل منهم فصاحة ، وهذا من قبيح القول ، إذ الثابت أنه كان أفصح الناس لساناً وأقواهم بياناً .

شَطْراً [1] من بَيانه ، وكثيراً مما عُرِفَ له قبلَها من شرَف اللَّفظ وحُسْنِ النَّظم ، ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك ، حصل منه أن يكون عليه السلام قد تَلا عليهم : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [2] ﴾ (الإسراء: ٨٨) في حالٍ هو يستطيعُ فيها أن يجيءَ بمثل القرآن ويَقْدرُ عليه، ويتكلَّم ببعض ما يوازيه في شرف اللَّفْظ وعُلُوِّ النظم، اللهمَّ إلا أن يتقحموا [3] جهالةً أُخرى، فيزعموا أنه عليه السلامَ قد كان في الأصل دونَهم في الفصاحة ، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامُهم قبلَ نزول القرآن في مثْل لَفْظه ونَظْمه ، قد كان لبُلغاء العرب دون النَبي ، وإذا قالوا ذلك ، كانوا قد خرجوا من قَبيح القول إلى مثله ، فلم يَشُكَّ أحدٌ أنه ﷺ لم يكن منقوصاً في الفصاحة ، بل الذي أتَتْ به الأخبارَ أنه ﷺ كانَ أفْصَحَ العرب .

* * *

٤١ - ومِمَّا يلزَمُهم على أصْل المقالة أنّه كان ينبغي لَهُم - لَو أنّ العربَ كانت مُنِعت منزلةً من الفصاحة قد كانوا عليها - أنْ يعرفوا ذلك من أنفسهم ، كما قدَّمت ، ولو عرَفوه لكان يكون قد جاءَ عنهم ذكْرُ ذلك ، ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ : « إنا كُنَّا نستطيع قَبْل هذا الذي جئتَنَا به ، ولكنك قد سَحَرْتَنا ، واحْتَلْتَ [4] في شيء حال بيننا وبينه » ، فقد نسبوه إلى السِّحر في كثير من الأمور كما لا يخفى ، وكان أقَلَّ ما يجب في ذلك أن يتذاكَرُوه فيما بينهم ، ويشكُوهُ البعضُ إلى البَعْض ، ويقولوا : « مَا لَنَا قَد نَقَصْنا في قرائحنا ، وقد حدَث كُلُولٌ [5] في أذهاننا » ، ففي أنْ لم يُرْوَ ولم يُذْكَرْ أنه كَانَ منهم قولٌ في هذا المعنى ، لا مَا قَلَّ ولا مَا كَثُرَ ، دَليلٌ على أنه قول فاسد ، ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل [6] .

* * *

٤٢ - هذا ، وفي سياق [7] آية التحدِّي ما يدُلُّ على فَسَاد هذا القول ، وذلك أنه لا يُقال عن الشيء يُمْنَعُهُ الإنسان بعد القُدْرة عليه ، وبَعْد أن كان يَكْثُر مثلُه منه : « إني جئتُكم بما لا تَقْدرونَ على مثله ولو احْتَشَدْتُم له [8] ، ودعوتُم الإنسَ والجنَّ إلى نُصْرتكم فيه » ، - وإنما يقالُ : « إنّي أُعْطيتُ أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأَمْنَعُكم إيّاه ، وأن =

---

(١) الشطر : نصف الشيء ، وقد يستعمل في الجزء منه . (٢) ظهيراً : معيناً .
(٣) يقتحموا : يدخلوا قسراً .
(٤) احتال : استعمل مهارته ليصل إلى مراده . (٥) كلول : كلل وضعف .
(٦) ذوي التحصيل : العقل والإدراك .
(٧) سياق آية التحدي : أسلوب الآية التي جرت عليه . (٨) احتشدتم له : اجتمعتم .

٤١ - ولو أنهم من الفصاحة التى كانوا عليها قبل زمن النبى لكان ينبغى أن يعرفوا ذلك فى أنفسهم ، ولو عرفوه لتحدثوا به وتحدث الناس عنهم ، ولو كان ذلك حقيقة لقالوا للنبى عليه السلام : كنا نستطيع أن نأتى بمثل الذى جئت به، ولكنك سحرتنا وحلت بيننا وبين ذلك .

ولكنهم يذكروا ذلك ولم يرووه ، لا بما قل ولا بما كثر ، مما يدل على فساد قولهم بالصرفة .

❊ ❊ ❊

٤٢ - وفى سياق قوله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ ما يدل على فساد قولهم بالصرفة ؛ لأنه إذا منع المرء من شىء قد اعتاد على فعله لا يقال له : إنى قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ، ولو كنتم جميعاً بما فيكم إنسكم وجنكم، ولكن يقول: إنى قد جئتكم بكلام أحيل بينكم وبين الإتيان بمثله ، وأمنعكم عن فعل نظيره ، وإن كنتم قبل ذلك تستطيعونه .

وليس من المنطق أن يقول لهم : لو اجتمعتم كلكم على الإتيان بمثله لما استطعتم ، فى شىء كانوا يقدرون عليه ويسهل لديهم ، وإنما يقال فى مثل هذه الأمور : أتيتكم بشىء ، لا تستطيعون أن تأتوا بمثله قط ، ولو أضفتم إلى قواكم قوى أخر ، إذ لا معنى للمساندة والمؤازرة .

فالآية - إذن - لا تحمل على ما ذهبوا إليه من قولهم بالصرفة لما فى ذلك من التهافت والبعد ، والبطلان والفساد.

❊ ❊ ❊

أُفْحمكم (١) عن القول البليغ ، وأُعْدمكم اللَّفْظَ الشَّريف » ، وما شاكلَ هذا . ونظيره أن يُقَالَ للأشدَّاء وذوى الأيْد (٢) : « إنَّ الآيَةَ أن تَعْجزُوا عن رَفْع ما كان يَسْهُل عليكم رَفْعُه ، وما كان لَا يَتَكَاءدُكم (٣) ، ولا يثقُلُ عليكم » .

ثُمَّ إنه ليس فى العرف ولا فى المعقول أن يقال : « لو تعاضدتم (٤) واجتمعتم جميعكم لم تقدروا عليه » ، فى شىء قد كان الواحدُ منهم يَقْدر على مثْله (١) ، ويسهُل عليه ويستقلُّ به ، ثم يمنعون منه - وإنما يُقال ذلك حيثُ يراد أن يَقال : « إنكم لم تستطيعوا مثْلَه قطُّ ، ولا تستطيعونه ألبتَّةَ (٥) وعلى وجه من الوجوه ، حتى إنكم لو استضَفْتم إلى قُوَاكم وقُدَركم التى لكم قُوىً وقُدَراً (٦) ، وقد استمددْتم من غيركم ، لم تستطيعوه أيضاً » من حيث إنه لا معنى للمعاضدة والمُظَافَرة والمعاونة (٧) ، إلا أن تَضُمَّ قدرتَك إلى قدرة صاحبك حتى يَحْصل باجتماع قدرتكما ما لم يكن يَحْصُل (لأحدكما منفرداً) .

فقد بان إذَنْ أنْ لا مَسَاغ لحمل الآية على ما ذهبُوا إليه ، وأنْ لا مُحْتَمَل فيها لذلك على وجه من الوجوه ، وظَهَر به وسائر ما تقدَّم أنَّ القولَ بالصَّرْفة ، ولا سيما على هذا الوجه ، قولٌ فى غاية البُعْد والتهافُت (٨) ، وأنه من جنس ما لا يُعْذَر العاقل فى اعتقاده ، ولم أقُلْ : «ولا سيما على هذا الوجه» (٩) ، وأنا أعنى أن للقول بها على الوجه الأول مَسَاغاً (١٠) فى الصحة ، ولكنى أردت أن فساده كأنّه أظهرُ ، والشناعةَ عليه أكثرُ ، وإلا فما هما ، إن أَردتُ البُطْلانَ ، إلا سواءٌ .

* * *

٤٣ - فإن قلتَ : فكيف الكلامُ عليهم ، إذا ذهبوا فى « الصَّرْفَة » إلى الوجه الآخر ، فزعموا أن التحدِّىَ كان أن يأتُوا فى أنْفُسِ مَعَانى القرآن بمثْل نَظْمه ولفظه ؟ وما الذى دَلَّ على فساده ؟

فإنّ على فساد ذلك أدلَّةً منها قوله تعالى : ﴿ أَم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود : ١٣) ، وذاك أنَّا نعلمُ أنَّ المعنى : فأْتوا بعشر سور تَفْترونَها أنتم - وَإذا

(١) أفحمكم : أصدكم وأمنعكم وأقطع حجتكم . (٢) ذوى الأيد : أصحاب القوة .
(٣) يتكاءدكم : يشتد عليكم ويصعب . (٤) تعاضدتم : ساند بعضكم بعضاً .
(٥) لا تستطيعونه ألبتة : لا تستطيعونه أبداً . (٦) قُدَرا : قدرة .
(٧) المعاضدة : المؤازرة ، المظافرة : النصرة ، المعاونة : المساعدة .
(٨) التهافت : البطلان والسقوط . (٩) لا سيما : خاصة .
(١٠) مساغاً : طريقاً .

٤٣ - وما القول إذا كانت الصرفة عندهم أن يأتوا بأنفُس المعانى القرآنية بمثل لفظها ونظمها ، وما دليل فساده ؟

يدل على فساد ذلك كثير من الأدلة .

منها : قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سوَرٍ مثله مفتريات** ﴾ (هود : ١٣) أى افتروا معانيها كما زعمتم أنى افتريت معانى القرآن . وهذا واضح من سياق الآية ، فإذا قدرتم أن المراد هو أن تأتوا بأنفس معانى القرآن كان ذلك خروجاً عن نص الآية وتحريفاً لها .

ومنها : إن زعمتم ما تقولون لكان ينبغى أن يكون أصل الكلام : إن زعمتم أنى افتريته ، فأتوا أنتم فى معانى هذا المفترى بما ترون من اللفظ والنظم .

كقولك لمن يزعم أنك سرقت شِعرك وأخذته من فلان أو فلان : إن كنت سرقتُ معانىَ شِعرى فقل أنت فى هذه المعانى التى سرقتها مثل الذى قلتُ ، وليس هذا بمستساغ .

* * *

كان المعنى على ذلك ، فبنا أن ننظر في الافتراء إذا وُصف به الكلام ، إلى المعنى يَرجعُ أم إلى اللَّفْظ والنظم ؟ وقد عَرَفْنا أنه لا يرجعُ إلا إلى المعنى ، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى وجب أن يكونَ المراد : إن كنتم تزعُمون أنّي قد وضَعْتُ القرآنَ وافتريتُهُ ، وجئتُ به من عنْد نفسي، ثم زعمتُ أنَّه وَحْيٌ من الله ، فضعُوا أنتم أيضاً عَشْرَ سُوَر وافتَرُوا معانيها كما زعمتم أنّى افتريتُ معانيَ القرآن ، فإذا كان المراد كذلك ، كان تقديرُهُم أن التحدِّيَ كان أن يَعْمدوا إلى أنْفُسِ معانيَ القرآن فيُعَبِّروا عنها بلفظ ونَظْم يشبه نَظْمَه ولفظَه ، خروجاً عن نصٍّ التنزيل وتحريفاً له [1] .

وذاك أنَّ حقَّ [2] اللفظ - إذا كان المعنى ما قالوه - أن يُقال : « إن زعمتم أنّي افتريتُه ، فأْتوا أنتم في مَعانى هذا المُفْتَرى بمثل ما تَرَون من اللَّفظ والنَّظْم » ، يَبيِّنُ ذلك أنَّه لو قال رجل شعراً فأحسن في لفظه ونَظْمه وأبلغ ، وكان له خَصْمٌ يُعانده ، فعَلم الخَصْمُ أنه لا يَجد عليه مَغْمَزاً [3] في النظم واللفظ ، فترك ذلك جانباً وتشاغَل عنه ، وجعل يقول : « إنّى رأيتُكَ سرَقت مَعَانيَ شعرك وانْتَحلتَها [4] وأخذتها من هذا وذاك » ، قال له الرجل في جواب هذا الكلام : « إن كُنْتُ قد سرقتُ مَعانيَ شعرى ، فقل أنتَ شعراً مثله مَسْروقَ المعانى » - لم يُعْقَلْ منه إلاّ أنه يقول : « فقلْ أنت شعراً في معان أُخَرَ تَسْرقها كما سرقتُ معانيَّ بزعمك » - ولم يُحْتَمل أن يريد : « اعْمَدْ إلى معانيَّ فقُلْ فيها شعراً مثل شعرى » ، وإنما يعقل ذلك إذا هو قال : « إن كنتُ قد سَرَقْتُ معانيَ شعرى ، فقل أنتَ في هذه المعانى المسروقة مثْلَ الذى قلتُ ، وانظم فيها الكلامَ مثْل نظمى لكلامى ، وحَبِّرهُ تَحْبيرى » [5] .

* * *

٤٤ - هذه جُمْلَةٌ لا تخفَى على من عَرَف مخارجَ الكلام ، وعَلم حقَّ المعنى من اللفظ ، وما يُحْتَمل ممَّا لا يحتمل ، ومنها ما تقدَّم ، من أنه لا يُقَال في الشيء قد كان يكثر مثْلُه من الإنسان ثُمَّ مُنِع منه : « إيت بمثله ، واجْهَدْ جُهْدَك ، واستعن عليه ، فإنك لا تستطيعه ولو أعَانَك الجن والإنس » ، وإنما يقَالُ ذلك في البَديع المُبْتَدأ [6] ، أو الذى لم يُسْبَقْ إليه ، ولم يُوجَدْ مثْلُه قَطُّ .

وهذا المعنى وإنْ كان يلزَمُهمْ في الوجهين ، فإنه لَهُم في هذا الوجه الذى نحنُ فيه ألْزمُ ،

---

(١) تحريفاً له : خروجاً عن معناه .
(٢) حق اللفظ : أصل اللفظ .
(٣) مغمزاً : طعناً .
(٤) نحل الشيء : نسبه لنفسه .
(٥) حبّره تحبيرى : أفرغ جهدك في تزيينه وتنميقه .
(٦) البديع المبتدأ : الشيء يبتدأ به ولم يسبق إليه .

٤٤ - ولا يخفى على من عنده علم بأساليب الكلام ، فإنه لا يقال لمن يحسن القول ويأتى بالكثير منه ، ثم يمنع عنه ، لا يقال : إنك لا تقدر أن تأتى بمثل ما كنت تأتى به، ولو استعنت بالإنس ومعهم الجن ، وإنما يقال ذلك لمن ابتدأ كلاماً لم يسبق إليه، ولم يوجد مثله أبداً .

وقد جاء عن العرب أخبار كثيرة تعظم من شأن القرآن ، وخلعوا عليه من الوصف ما لا مزيد عليه كقولهم : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر » ، ومحال أن يعظموا القرآن كل هذا التعظيم وهم يرون فى كلام العرب ما يوازيه ولا يتعذر عليهم الإتيان بمثله، ولكنهم وجدوا فى أنفسهم من العلل ما يدفعهم عنه ، وهو قريب منهم وفى متناول أيديهم .

بل ينبغى فى مثل هذه الحال أن يقولوا : لا نستطيع أن نأتى بنفس معانى القرآن ، ولكن نستطيع أن نأتى بغير معانيه ما شئنا بحيث يوازيه ولا يقصر عنه .

❊ ❊ ❊

وذاك أن قولك للرجل يَقْدر على مثل الشىء اليومَ فى كثير من الأحوال والأُمور ، ويَعُوقه عنه عائقٌ[1] فى حال واحدة وأمر واحد : « لو اجتمع الإنسُ والجن فأعانوك لم تَقْدر على مثله» – أَبعدُ وأقبحُ من قولكَ ذلكَ ، وقد كان يَقْدرُ عليه فى سالف الأزمان ، ثم مُنِعَه جملةً، وجُعل لا يستطيعه ألبتّة .

ومنها الأَخبار التى جاءَت عن العرب فى تعظيم شأْن القرآن ، وفى وَصْفه بما وصفوه به من نحو : « إنّ عليه لطَلاوةً ، وإن له لحَلاوة ، وإن أَسفَله لمُغْدق ، وإن أَعلاه لمُثمرٌ » [2] ، وذاك أَن مُحَالاً أَن يُعظِّموه ، وأن يُبْهَتُوا عند سماعه ، ويَسْتكينوا له [3] ، وهم يرَون فيما قالوه وقالَه الأَوَّلون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم يتعذَّر عليهم لأَنهم لا يَسْتَطيعون مثلَه ، ولكن وجدوا فى أنفسهم شبْهَ الآفة والعارض [4] يَعْرضُ للإنسان فيَمْنَعُه بعضَ ما كان سهلاً عليه بل الواجبُ فى مثْل هذه الحال أَنْ يقولوا : « إنْ كُنَّا لا يَتَهيَّأُ لنا أَن نَقُول فى معانى ما جئتَ به ما يُشْبِهه ، إنّا لَنَأْتيك فى غيره من المَعَانى ما شئتَ وكيف شئتَ ، بما لا يَقْصُر عنه ولا يَكُون دُونَه » .

* * *

٤٥ – وجُمْلة الأمر أن عَلَمَ النُّبُوَّة [5] عندئذ والبُرْهَانَ ، إنَّما كان يكون فى الصَّرْف والمنع عن الإتيان بمثل نَظْم القرآن لا فى نَفْس النظم ، وإذا كان كذلك ، فينبغى إذا تعجَّب المُتَعجِّب وأكبرَ المُكْبرُ [6] ، أن يَقْصد بتعجبه وإكباره إلى المَنْع الذى فيه الآية والبرهان ، لا إلى الممنوع منه . وهذا واضحٌ لا يُشْكل [7] .

* * *

٤٦ – فإنْ قالوا : إنه لَيكُون أن يَسْتَحسن الشاعرُ الشعرَ يقولُه غَيْرُه ويُكبر شأْنه ، ويرَى فيه فَضْلاً ومزيَّةً على ما قاله هو من قَبْلُ ، ثُمّ هو لا ييأْس من أن يقدرَ على مثْله إذا هو جَهد نفسَهُ وتعمَّل له [8] ، فنحنُ نجعل لفظَ القرآن ونَظْمَه على هذا السبيل ، ونقول : إنهم سَمعوا منه ما بَهَرهم وعَظُم فى نفوسهم ، وأنهم كانوا على حال أَنسُوا [9] من أنفسهم بأنهم يأْتون

---

(١) يعوقه عائق : يمنعه مانع .　　(٢) معذق : يصل إلى الأغوار والاعماق فى كل اتجاه .
(٣) يبهتوا عند سماعه : يدهشوا له ، يستكين للشىء : يخضع له .
(٤) الآفة : العلة والداء ، والعارض : الشىء يعرض للمرء فيمنعه مما كان قادراً عليه .
(٥) علم النبوة : دليل الرسالة .　　(٦) أكبر المكبر : إكبار الكبير .
(٧) واضح لا يشكل : لا يغمض ولا يخفى .
(٨) تعمّل له : تفرغ له واهتم به .　　(٩) أنسوا من أنفسهم : رأوا منها .

٤٥ - فدليل النبوة هو عدم قدرتهم على الإتيان بمثل نظم
نرآن ، وليس بنظم القرآن نفسه ، والتعجب حدث من عدم
ندرة على إمكانهم ذلك ، وليس لأنهم صرفوا عنه ، وهذا
ن الوضوح بمكان .

* * *

٤٦ - وإذا استمع شاعر إلى شعر شاعر آخر فاستحسنه ،
نه يرى فيه فضلاً ومزية لم يستطع هو نفسه أن تكون فى
مره نفس الميزة ، إلا أنه لا ييأس فيجهد نفسه ليصل إلى
ل هذا الشعر الذى سمعه فى الجودة والميزة .

وأمر القرآن كذلك ، فقد سمعوا منه ما يبهر ، ولكنهم
سوا فى أنفسهم أن يأتوا بمثله إذا اجتهدوا ، ولكن حيل
هم وبين هذا الاجتهاد فلم يقدروا .

وإذا كنا نعلم أن الشاعر العظيم المبهر ربما صعبت عليه
نافية وعيى بها ، وأن الخطيب المصقع قد يرتج عليه فلا
يض بعبارة ، فلم يكن ما قلناه فى شأن العرب بعيداً عن
ك ، ويحتمل إمكانهم الإتيان بمثل القرآن إلا أنه قد حدث
م ما يحدث للشاعر المفلق والخطيب المصقع .

بمثله إذا هُمُ اجتهدُوا ، فحيلَ بينهم وبين ذلك الاجتهاد ، وأُخذُوا عن طريقه ، ومُنعوا فَضْلِ المُنّة [1] التى طمعوا معهاً فى أن يَجْرُوا إلى تلك الغاية ويبلُغوا ذاكَ الذى أرادوا ، وإذا كنّا نعلم أن الشاعرَ المفلق [2] ربّما اعتاص [3] القولُ عليه حَتى يَعْيَا [4] بقافية ، وحتى تَنْسَدَّ عليه المذاهبُ ، وأن الخطيبَ المصْقَع يُرْتَج [5] عليه حتى لا يجدَ مقالاً ، وحتى لا يُفيضَ بكلمة ، لم يكن الذى قُلْناه وقدَّرناه بعيداً أن يكونَ ، وأن يَسَعَهُ الجَوازُ ويَحْتملَه الإمكانَ .

قيل لهم : أنتمُ الآنَ كأنكم أردتم أن تُحَسِّنُوا أمركم ، وأن تُغَطُّوا على بعض العَوَار [6] ، وأن تَتَملَّصُوا [7] من الذى تُلْزَمون ، وليس لكم فى ذلك كبيرُ جَدْوَى [8] إذَا حُقِّق الأمرُ ، وإنما هو خداعٌ وضربٌ من التَّزويق .

وَأَوَّلُ ما يدلُّ على بُطْلان ما قلتم ، أَنَّ الذى عرفنا من حال النَّاس فيما سبيله ما ذكرتم ، التَّضَجُّرُ [9] ، والشكوى ، وأن يقولوا : « ما بَالُنا ؟ ومن أَيْن دُهِينا ؟ وكيف الصُّورة ؟ إنَّا وإن كنَّا نسمعُ قولاً له فَضْلٌ ومزيةٌ على ما قلناه ، فإنه ليس بالذى ينبغى أن نَعجز عنه هكذا حتى لا نَسْتطيع فى معارضته ما نَرْضَى ، فلا ندرى أَسُحِرْنا أم ماذا كان ؟ » - ففى أن لم يُرْوَ عنهم شىءٌ من هذا الجنْس على وجه من الوجوه ، دليلٌ أنْ لا أصل لما توهموه ، وأنَّه تلفيقٌ [10] باطل .

ثُمَّ إنه ليس فى العادة أن يُذْعنَ [11] الرجلُ لخَصْمه ، ويستكينَ له ، ويُلْقىَ بيده ، ويسكتَ على تَقريعه له بالعَجْز وترديده القولَ فى ذلك ، وقَدْرُ ما ظَهر من المزِيَّة قَدَرٌ قد يَطْمع الإنسانُ فى مثله ، ويرَى أنه ينَاله إذا هو اجتهَدَ وتعمَّد - بل العادة فى مثل هذا أن يَدْفَعَ العَجزَ عن نفسه ، وأن يَجْحَد الذى عرَف لصاحبه من المزيَّة ويتشدَّد ، كما فَعل حَسَّان ، فَيَدَّعى فى مساواته ، وأنه إن كان جرى إلى غاية رأى لنفسه بها تقدُّماً إنه ليجرى إلى مثلها ، وأن يَقول : « لا تَغْلُ ولا تُفْرط ولا تَشْتَطَّ [12] فى دعواك ، فلئن كنتَ قد نلْتَ بعضَ السَّبْق ، إنك لم تَبْعد المدَى [13] بُعْد من لا يُدَانَى ولا يُشَقُّ ، فرويداً [14] ، واكفُفْ من غُلَوائك » [15] .

* * *

---

(1) فضل المنّة : فضل المزية . (2) الشاعر المفلق : البارع الذى لا نظير له .
(3) اعتاص القول : خفى والتوى وصعب . (4) يعيا بالقافية : يجهد ويضعف .
(5) الخطيب المصقع : المفوه ذو البيان الواضح ، ارتج عليه : استغلق عليه الكلام .
(6) العوار : العيب والنقص . (7) تتملصوا : تتخففوا وتهربوا .
(8) كبير جدوى : عظيم فائدة . (9) التضجر : التبرم .
(10) التلفيق : ضم الشىء إلى آخر ، ليستخرجوا منه أمراً . (11) أذعن : خضع .
(12) لا تشتط : لا تسرف . (13) المدى : الغاية . (14) رويداً : تمهل .
(15) اكفف من غلوائك : قلل من إسرافك وتكبرك .

نقول لهم : لقد أردتم أن تداروا عجزكم ولجأتم إلى ضرب من الخداع والتزويق .

ويدل على بطلان ما قلتم ، لو كان الأمر كما تقولون للأتم الدنيا شكوى وتضجراً ، ولقلتم : إن القرآن وإن كان فيه فضل ومزية ، إلا أننا لن نعجز عن معارضته ، ولا ندرى إن كنا قد سحرنا أم ماذا أصابنا ، ولكن لم يرد عنكم شيء من ذلك مما يدل على تلفيق هذه الدعوى وهذا الزعم .

وليس من المعتاد أن يذعن الرجل لخصمه وهو قادر أن يأتى بمثل دعواه ؛ بل العادة أن يدفع العجز عن نفسه ، وأن يجحد المزية التى يتشدق بها صاحبه .

ويستشهد عبد القاهر بادعاء حسان بن ثابت بأنه قادر أن يأتى بكلام يوازى القرآن ويحاذيه ، والرد عليه بأنه وإن كان قد نال بعض السبق ، إلا أنه لم يصل إلى المدى الذى يعجز عنه غيره ، فتمهل أيها المدعى واكفف من غرورك وتيهك .

* * *

٤٧ - واعلمْ أنهم بتمحُّلهم [١] هذا قد وقعوا فى أمر يُوهى [٢] قَاعدتهم ، ويقدَحُ [٣] فى أصل مَقالتهم ، فقد نظروا لأنفسهم من وَجْه وتركوا النَّظَرَ لها من آخرَ ، وذاك أن من حقّ المنع إذا جُعل آيةً وبرهاناً ، ولا سيّما للنُّبوّة ، أن يكون فى أظهر الأمور وأكثرها وجوداً ، وأسهلهَا على الناس ، وأخلَقها [٤] بأن تَبين لكلّ راء وسامع أنْ قدْ كان مَنْعٌ ، لا أن يكون المَنْعُ منْ خَفَىّ لا يُعْرَف إلا بالنَّظَر ، وإلا بَعْدَ الفكْر ، ومن شىء لم يُوجَدْ قَطُّ ولم يُعْهَدْ ، وإنَّما يُظَنُّ ظنا أنَّهُ يجوز أن يكون ، وأنَّ له مدخلاً فى الإمكان إذا اجتَهَد المُجْتهد ، وهل سُمع قَطُّ أن نبيا أتى قومه فقال : « حُجَّتى عليكم ، والآيةُ أنِّى نبىٌّ إليكم ، أن تُمنعوا من أمر لم يكن منكم قطُّ ، وليسَ يظهر فى بَادئ الرأى [٥] وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه ، ولكنَّه موهوم جوازه منكم ، إذا أنتم كددتم أَنفسكم [٦] ، وجمعتم ما لَكم ، واستفرَغْتُم مَجْهُودَكم [٧] ، وعاودتم الاجتهادَ فيه مرة بعد أُخْرى ؟ » أم ذلك ما لا يقوله عاقلٌ ، ولا يُقْدم عليه إلا مُجَازف [٨] لا يدرى ما يَقُول ؟

وإذا كان كذلك ، وكان الذى قالوه من أنّ المنعَ كانَ من نَظْم لم يُوجَدْ منهم قطُّ ، إلا أنَّهم أحسُّوا فى أنفسهم أنهم يستطيعونَه إذا هُمُ اجتهدُوا واستفرغوا الوُسْعَ ، بهذه المنزلة ، وداخلاً فى هذه القضيَّة - فقد بان أنهم بذلك قد أَوْهَوْا قاعدتهم ، وقدَحوا فى أصل المَقالَة ، من حيث جعلوا الآيةَ والبرهانَ وعَلَمَ الرِّسالة والأمرَ المُعْجز للخَلْق ، فى المنع من شىء لم يُوجَدْ قطُّ ، ولم يُعْلَمْ أنه كان فى حال من الأحوال ، وليس بأكثر من أنْ ظُنَّ ظَنا أنه مما يحتملهُ الجوازُ ويدخُل فى الإمكان ، إذا أُدْمنَ [٩] الطلبُ ، وكثُر فيه التعبُ ، واستُنْزفَتْ [١٠] قُوَى الاجتهاد ، وأُرْسلَت له الأفكارُ فى كل طريق ، وحُشِدت إليه الخواطر من كُلِّ جهة ، وكفى بهذا ضَعْفَ رأْى وقلَّة تحصيل .

* * *

(١) تمحل الشىء : زعمه وادعاه .
(٢) يوهى : يضعف .
(٣) يقدح : يطعن .
(٤) أخلقها : أجددها .
(٥) بادئ الرأى : أول الأمر .
(٦) كددتم أنفسكم : أجهدتم وأتعبتم أنفسكم .
(٧) استفرغتم مجهودكم : بذلتم أقصى ما تستطيعون من جهد .
(٨) مجازف : مغامر .
(٩) أدمن الطلب : تكرر .
(١٠) استنزفت القوى : ضعفت وانمحت .

٤٧ – وبهذا التمحل وقعوا فى أمر أضعف حجتهم ، وأوهى قاعدتهم .

وإذا كان المنع هو حجتهم خاصة فيما يتعلق بالنبوة والقرآن أن يكون فى الأمور الظاهرة التى يراها ويسمعها كل راءٍ وسامعٍ ، ولا يكون المنع فيما خفى من الأمور ، ولا يعرف إلا بعد الفكر والتأمل ، أو فى شىء لم يوجد قط .

وقد يكون الأمر ممكناً إذا اجتهدوا فيه وتمرسوا فى محاولته، لم يسمع من نبى قط أن قال لقومه : حجتى عليكم أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط ، ولكن يتوهم وجوده منكم وإتيانكم به إذا عاودتم الاجتهاد المرة تلو المرة ؛ لأن ذلك لا يقوله عاقل ، ولا يقدم عليه إلا مجازف .

وإذا قالوا : إن المنع كان من نظم لم يوجد منهم من قبل، غير أنهم شعروا فى قرارة أنفسهم أنّ باستطاعتهم أنْ يضاهوه إذا شمّروا عن ساعد الجد واستفرغوا جهدهم فيه .

إذا قالوا ذلك فقد أضعفوا حجتهم من حيث قد جعلوا برهانهم فى المنع من شىء لم يوجد ولم يعلم من قبل ، ولكن يظن أو يتوهم إمكانهم عليه إذا ضاعفوا من جهدهم وحشدوا كل قواهم وأدمنوا فى الطلب ، وكفى بهذا تهافتاً وضحالة .

* * *

فَصْــلٌ

(ختام الرسالة الشافية)

٤٨ – وهذا فصلٌ أختمُ به :

ينْبغى أن يقال لهم : مَا هذا الَّذى أخذتُم به أنفسكم ؟ وما هذا التأْويلُ (١) منكم فى عَجْز العرب عن معارضة القرآن ؟ وما دعاكُم إليه ؟ وما أردتم منه ؟ أأَن يكونَ لكم قولٌ يُحْكَى ، وتكونُوا أُمَّةً على حدَة (٢) ، أم قد أتاكم فى هذا الباب علمٌ لم يأْتِ الناسَ ؟

فإن قالوا : أتانا فيه علمٌ .

قيل : أفمِنْ نَظر ذلك العلمُ أَمْ خبر ؟ (٣)

فإن قالوا : من نَظَر .

قيل لهم : فكأنَّكم تعنُون أنكم نَظَرتم فى نظم القرآن ونَظْم كلام العرب ، ووازَنْتُم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقَدْر الذى لَوْ خُلُّوا (٤) والاجتهادَ وإعمالَ الفكر ، ولم تَفَرَّقْ عنهم خواطرهُم عند القصد إليه ، والصَّمْد له – لأتَوْا بمثله ؟

فإن قالوا : كذلك نقول .

قيل لهم : فأنتم تَدَّعون الآن أنَّ نَظَركم فى الفصاحة نَظَرٌ لا يغيب عنه شيء من أمرها ، وأنكم قد أحَطْتم علماً بأسرارها ، وأصبحتم ولكم فيها فَهْمٌ وعلْمٌ لم يكن للناس قَبْلكم .

وإن قالوا : عرفنا ذلك بخَبَر .

قيل : فهاتوا عرِّفُونا ذلك ، وأنَّى لهم تعريف مَا لم يَكُنْ ، وتَثْبيتُ ما لم يُوجد !

ولو كان الناس إذا عنَّ (٥) القولُ نَظَروا فى مُؤَدَّاه (٦) ، وتبيَّنوا عاقبتَه ، وتذكَّروا وَصيَّةَ الحكماء حين نَهَوْا عن الوُرُود حتى يُعْرَفَ الصَّدَر (٧) ، وحَذروا أن تجيءَ أعجازُ (٨) الأُمور

(١) التأويل : أن يحتمل الكلام أكثر من وجه .
(٢) أمة على حدة : متحدة غير متفرقة ولا خلاف بينكم .
(٣) من نظر أم خبر : من الرؤية أو من السماع .
(٤) لو خلُّوا : لو تركوا .
(٥) عنَّ لهم القول : ورد على خاطرهم .
(٦) نظروا فى مؤداه : قصْده .
(٧) نهوا عن الورود حتى يعرف الصدر : نهوا عن المورد حتى يعرف المصدر .
(٨) أعجاز الأمور : أعقابها .

فَصْلٌ
خاتمة الكلام

٤٨ – عجز العرب عن معارضة القرآن لرفعة نظمه وجمال لفظه ، ولكنكم أوّلتم ذلك وقلتم : إنهم صرفوا عن ذلك رغم قدرتهم عليه وفصاحتهم ، وأردتم بهذا الزعم أن يكون لكم شأن يتحاكى به الناس على مر الأزمان .

فإن كان قد أتاكم علم عن طريق النظر ، فنظرتم إلى نظم القرآن ونظم كلام العرب ووازنتم بين الاثنين ، فلم تجدوا إلا فرقاً ضئيلاً يمكنكم أن تستوفوه إذا أنتم اجتهدتم وأعملتم فكركم .

إذا قلتم ذلك فقد ادعيتم أنكم أحطتم بأسرار الفصاحة ، ولكم فيها علم وفهم لم يكن لأحد قبلكم .

وإن كان قد أتاكم العلم عن طريق الخبر ، فعرفونا به ، وكيف يمكنهم التعريف بشيء لم يكن ولم يوجد قط ؟!

بغير ما أَوْهَمت الصدور - إذاً لكفُّوا البلاء (1) ، ولَعُدم هذا وأشباهُه من فاسد الآراء ، ولكن يأبَى الذى فى طبَاع الإنسان من التسرُّع ، ثم من حُسْن الظنّ بنفسه ، والشَّغَف بأن يكون متبوعاً فى رأيه ، إلا أنْ يَخدعَه ويُنْسيَه أنه مُوصى بذلك ، ومَدعُوٌّ إليه ، ومُحَذَّرٌ من سُوءُ المغبة (2) ، إذَا هو تَركه وقصَّر فيه ، وهىَ الآفة (3) لا يسلَم منها ومن جنايتها إلا من عصم الله إليه عزَّ اسمه الرَّغبةُ فى أن يُوفَّق للتى هى أَهْدَى، ويَعْصِم من كلّ ما يُوتِغُ الدِّين(4)، ويَثْلمُ اليقين(5)، إنه ولىّ ذلك والقادرُ عليه.

* * *

---

(1) كفُّوا البلاء : منعوا البلاء .

(2) سوء المغبة : فداحة العاقبة .

(3) الآفة : العيب .

(4) يوتغ الدين : يهلكه ويفسده .

(5) يثلم اليقين : يحدث فيه فجوة وكسراً .

وإذا برق لهم خاطر فنظروا فيه ، وتبيّنوا إلى أين ينتهى ، وتذكروا وصية الحكماء بأن أول الكلام يسلم إلى آخره ، وعجز القول لا يأتى إلا عن صدره لتجنبوا كثيراً من المزالق التى يؤدى إليها التسرع فى القول ، وسوء العاقبة إذا أهملت وصية الحكماء ، وساروا حسب هواهم فوقعوا فى الهلاك والفساد .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم
(فصل في الصرفة)

٤٩ - قولُ من قال : « إنَّه يجوزُ أن يَقْدر الواحدُ من النَّاس من بعد انقضاء زمن النبى ﷺ، ومُضِيِّ وَقْت التحدِّى ، على أن يأتى بما يُشْبه القرآن ويكون مثله ، لأنَّ ذلك لا يخرُجُ عن أن يكونَ قد كان معجزاً فى زمان النبى ﷺ ، وحين تُحُدِّى العربُ إليه » - قولٌ لا يصحُّ إلا لمن لا يجعل القرآن معجزاً فى نفسه ، ويذهب فيه إلى « الصرفة » .

فأمّا الذى عليه العلماء من أنه مُعْجز فى نفسه ، وأنّه فى نَظْمه وتأليفه على وَصْف لا يهتدى الخَلْق إلى الإتيان بكلام هو فى نظمه وتأليفه على ذلك الوصف ، فلا يصحُّ ألبَتَّةَ ذاك - لا فرقَ بين أن يكون الفعْلُ معجزاً فى جنسه كإحياء الموتَى ، وبين أن يكون معجزاً لوقوعه على وصْف ، وإذا كان كذلك ، فكما أنه مُحَالٌ أن يكون ههُنا إحياءُ ميِّت لا منْ فعْل الله ، كذلك محال أن يكون ههُنا نَظْمٌ مثل نَظْم القرآن لا من فعْله تعالى ، فهذا هو .

ثمَّ إنَّه قول إذا نُقِّر [1] عنه انكشفَ عن أمر مُنْكر ، وهو إخراجُ أن يكون وَحْياً من الله ، وأن يكون النبىُّ ﷺ قد تلقَّاه عن جبريل عليه السلام - والذهابُ إلى أن يكون قد كان على سَبيل الإلهام ، وكالشىء يُلْقَى فى نفس الإنسان ويُهْدَى له من طريق الخَاطر والهاجس [2] الذى يَهْجسُ فى القلبَ ، وذلك مما يُستَعاذ بالله منه ، فإنه تَطَرُّقٌ للإلحاد [3] ، والله ولىّ العصْمة والتوفيق .

* * *

(١) إذا نقّر عنه : إذا فتش فيه .

(٢) الهاجس : الصوت الخفى الذى يسمع ولا يفهم .

(٣) الإلحاد : الانحراف عن الدين .

٤٩ – ومن أقوال الذين نادوا بالصرفة ، أنه يجوز للرجل بعد انقضاء زمن النبى ، وبعْد مضىّ وقت التحدى أن يأتى بما يشبه القرآن ، ومعنى ذلك أن القرآن ليس معجزاً فى نفسه ، بل بأمر خارج عنه .

أما الذين يقولون : إن القرآن معجز فى نفسه ، وأنه جاء فى نظمه ولفظه وتأليفه على وصف لا يهتدى إليه الخلق أبداً، شأنه فى إعجازه شأن إحياء الموتى ، فكما لا يمكن إحياء الموتى إلا بفعل الله سبحانه ، كذلك لا يمكن أن يكون نظم مثل نظم القرآن إلا من الله سبحانه .

وإذا فتشنا فى زعمهم أن القرآن معجز بالصرفة ، لوجدنا أن فى ذلك إنكاراً بأنه وحى منزّل على النبى ﷺ ، وإنما خطر على ذهنه بدافع الإلهام والهاجس الذى يهجس بالقلب، ولا شك أن هذا القول يتطرق إلى الإلحاد ، وذلك مما يستعاذ بالله منه .

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

فَصْلٌ

(فى تمييز الكلام بعضه من بعض وما يترتب عليه)

٥٠ - اعلم أن البَلاء والداءَ العيَاءَ (١) أنْ ليس علمُ الفصاحة وتمييزُ بعض الكلام من بعض بالذى تستطيع أن تُفهمه من شئتَ وَمتى شئْت ، وأنْ لستَ تملكُ من أمرك شيئاً حتى تظفرَ بمن له طبعٌ إذا قَدَحْته وَرى (٢) ، وقلبٌ إذا أرَيْتَه (٣) رأى . فأمَّا وصاحبُك مَنْ لا يرَى ما تُريه ، ولا يهتدى للذى تَهْديه ، فأنت معه كالنَّافخ فى الفَحَم من غير نَار ، وكالملتمس الشَّمَّ مِن أَخْشَم (٤) ، وكما لا تُقيم الشعرَ فى نفس من لا ذَوْقَ له ، كذلك لا يفهم هذا البابَ من لم يُؤْتَ الآلة (٥) التى بها يَفْهَم - إلا أنّه إنّما يكون البَلاءُ إذَا ظَنَّ العادمُ لَهَا أنَّه قد أُوتيهَا ، وأنه مِمَّنْ يَكْمُل للحكم ويصحُّ منه القضاء ، فجعَل يَخْبط ويَخْلط (٦) ، ويقول القولَ لو علم غبَّهُ (٧) لاستحيَى منه .

وأما الذى يُحسُّ بالنقص فى نفسه ، ويعلم أنه قد عَدمَ علماً قد أُوتيه مَنْ سواه ، فأنت منه فى راحة ، وهو رجلٌ عاقلٌ قد حماه عقلُه أن يَعْدُوَ طَوْرَهَ (٨) ، وأن يتكلّف ما ليس بأهل له .

وإذَا كانت العلوم التى لها أُصولٌ معرُوفة ، وقوانينُ مضبوطةٌ ، قد اشترك الناس فى العلم بها ، واتَّفقوا على أن البناءَ عليها والرَّدَّ إليها ، إذَا أخطأ فيها المُخطِئ ، ثم أُعْجبَ برأْيه لم تَسْتَطع رَدَّه عن هواه (٩) ، وصَرْفَه عن الرأْى الذى رأى ، إلا بعد الجُهْد ، وإلا بعد أن يكون حَصيفاً (١٠) عاقلاً ثَبْتاً ، إذَا نُبِّه انتبَهَ ، وإذا قيل : « إنَّ عليكَ بَقيَّةً من النظر » ، وقَفَ وأصغى ، وخَشى أن يكون قد غُرَّ (١١) ، فاحتاطَ باستماع ما يقال لَهُ ، وأنفَ من أن يَلجَّ (١٢) من غير

---

(١) الداء العياء : المرض الوبيل .
(٢) ورى : اتقد واشتعل .
(٣) أريته : مكنته من الرؤية .
(٤) الأخشم: الذى لا يمكنه شم الرائحة: طيبة أو منتنة .
(٥) الآلة : الوسيلة .
(٦) يخبط ويخلط: يفسد الأمور لإقحام بعضها فى بعض .
(٧) غبّه : عاقبته .
(٨) يعدو طوره : يتجاوز حدّه .
(٩) رده عن هواه : عن رغبته .
(١٠) حصيفاً : ذكياً أريباً .
(١١) يخشى أن يكون قد غرّ : خدع .
(١٢) أنف أن يلج : ابتعد أن يتمسك

فَصْلٌ

٥٠ – ومن البلاء أن علم الفصاحة وتمييز الكلام بعضه عن بعض ليس فى مقدور الناس جميعاً ، وإنما هو خاص بمن له طبع سليم إذا قدحته اتقد وتقبل الكلام .

أما إذا كان الشخص لا يهتدى بما تريد هدايته به ، فأنت معه كالنافخ فى الرماد من غير فحم ولا نار ، وكمن يعرض الشعر لمن لا ذوق له .

فكذلك علم الفصاحة والبلاغة لا يتيسر إلا لمن امتلك آلاته وأسبابه من طبع سليم وذوق رقيق .

والآفة الكبرى والبلاء العميم أن يظن العادم للطبع الفاقد للذوق أنه قد أوتى أسباب البلاغة ، وهو منها عارٍ ، فتراه يخلط الأُمور ويتخبط فى الأقوال ، ولو علم عاقبة أمره لاستحيى من كلامه .

وأما الذى يحس النقص فى نفسه فأنت منه فى راحة ، لأنه يعرف قدره ، ولا يتجاوز حده ، ولا يتكلف ما ليس له .

والعلوم لها قوانين مضبوطة قد اتفق الناس عليها ، فإذا أخلّ بها المرء روجع وصرف عن قوله ، ولا يكون ذلك إلا بعد بذل الجهد معه ، وإلا إذا كان عاقلاً إذا نبه إلى شىء انتبه إليه ، وابتعد أن يتمسك برأى دون حجة . ومن كانت هذه صفته كان نادراً وعزيزاً.

بيِّنة ، ويستطيل بغير حُجَّة . وكان مَنْ هذا وصْفُهُ يعزُّ ويقلُّ ، فكيف بأن تَرُدَّ الناس عن رأيهم فيَّ أمر الفصاحة ، وأصلُك الذى تردهم إليه ، وتُعوِّل فى مُحاجَّتهم [1] عليه ، استشهادُ القرائح ، وسَبْرُ النفوس وفَلْيُها [2] ، وما يعرض فيها من الأرْيَحيَّة [3] عندما تسمع؟ وهم لا يَضَعُون أنفسهم موضعَ من يَرى الرأى ويُفْتِى ويَقْضى ، إلا وعندهم أنَّهم ممن صَفَتْ قَريحتُه[4] ، وصحَّ ذوقُه ، وتَمَّت أداتُه .

فإذا قلت لهم : « إنكم أُتيتُمْ من أنفسكم ، ومن أنكم لا تَفْطُنُون » ، رَدُّوا مثله عليك ، وعابُوك ، ووقعوا فيك ، وقالوا :

« لا ، بل قرائحنا أصحُّ ، ونظرُنا أصدقُ ، وحسُّنا أذْكَى ، وإنَّما الآفةُ [5] فيكم ، فإنكم جئتم فخيَّلْتُم إلى أنفسكم أُموراً لا حاصلَ لها ، وأَوْهَمَكم الهوَى والميلُ أن تُوجبوا لأحَد النَّظْمين المتساويين فضلاً عن الآخر ، من غير أن يكون له ذلك الفضلُ » ، فتَبْقَى فى أيديهم حَسيراً[6] لا تَمْلكُ غير التعجب .

فليس الكلامُ إذَنْ بمُغْنٍ عنك ، ولا القولُ بنافع ، ولا الحجَّةُ مسموعةٌ ، حتى تجدَ مَنْ فيه عونٌ لك ، ومَنْ إذَا أبى عَليك أَبَى ذَاكَ طَبْعُه فردَّه إليك ، وفتح سَمْعه لكَ ، ورَفَع الحجاب بَيْنه وبينَك ، وأَخَذ به إلى حَيْثُ أنت ، وصرَف نَاظرَه إلى الجهة التى إليها أومأْتَ [7] ، فاستبدلَ بالنِّفار [8] أُنْساً ، وأراك من بعد الإباء [9] قَبُولاً ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) تعول فى محاجتهم : تعتمد عليه فى جدالهم .

(٢) سبر النفوس وفليها : النفاذ إلى أغوار النفس وتفتيشها .

(٣) الأريحية : الارتياح والنشاط .

(٤) صفت قريحته : صفا ذهنه .

(٥) الآفة فيكم : العيب بداخلكم .

(٦) حسيراً : حزيناً كئيباً مجهداً .

(٧) أومأت : أشرت .

(٨) النفار : الجفاء

(٩) الإباء : الامتناع

فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بالفصاحة ، التى يعول فيها على حدّة القريحة ، وذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وصحة الذوق .

وإذا راجعتهم فى ذلك تبجحوا معكم ، فهم أصح قريحة وأصدق نظراً وأذكى حساً ، والآفة فيك وليست فيهم ، فلا تملك إلا أن تقف حزيناً متحسراً على أقوالهم وادعاءاتهم.

وكلامك معهم لا يغنى من الأمر شيئاً ولن يعيدهم إلى الصواب ، فلا قولك معهم بنافع ولا حجتك فيهم مقبولة ، لأن طباعهم خشنة وأذواقهم بليدة .

أما من يفتح سمعه ويعى كلامك ، ويرفع الحجاب الذى أسدل بينك وبينه ، فإنه يرجع عن جموحه ، ويصبح جفاؤه أنساً وإباؤه قبولاً . والله الموفق .

* * *

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

* * *

فهرس الحديث النبوى

* * *

فهرس الأثر

* * *

فهرس الأبيات الشعرية

* * *

فهرس الأعلام

* * *

فهرس الموضوعات

تم الكتاب بحمد الله ومنّه وأسأل الله أن ينفع به

رقم الإيداع	٩٨ /٨٣١٧
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1144 - 8

دار الفكر العربى

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م

مؤسسها : محمد محمود الخضرى

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى ـ القاهرة
ص. ب : ١٣٠ ـ الرمز البريدى ١١٥١١
فاكس : ٣٩١٧٧٢٣ (٠٠٢٠٢)
ت : ٣٩٢٥٥٢٣ ـ ٣٩٢٠٩٥٦.

نشاط المؤسسة ١ ـ طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية فى شتى مجالات المعرفة والعلوم
٢ ـ استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية.

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية :

فرع مدينة نصر ٩٤ شارع عباس العقاد ـ المنطقة السادسة.
وإدارة التسويق : ت : ٢٧٥٢٧٩٤ ـ ٢٧٥٢٩٨٤.
فاكس : ٢٧٥٢٧٣٥.

فرع جواد حسنى: ٦ أ شارع جواد حسنى ـ القاهرة.
ت : ٣٩٣٠١٦٧.

فرع الدقى : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المتفرع من شارع محمد شاهين ـ العجوزة. ت ٣٣٥٧٤٩٨.

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من الكويت من مؤسسة : دار الكتاب الحديث

شارع الهلالى ـ برج الصديق ـ ص ب: ٢٢٧٧٥٤ الصفاة 130880 الكويت

ت : ٧/ ٥/ ٢٤٦٠٦٣٤ ـ فاكس ٢٤٦٠٦٢٨ (٩٦٥)